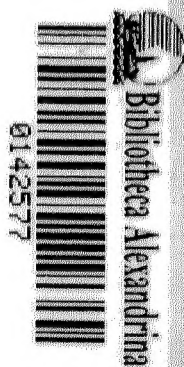


في الأدب والمحاضرة

بمقام
محمد الحسناوي



دار عمارة
عمارة

الكتاب الإسلامي
بمقام

في الأدب والمحاضرة

في الأدب والمحاضرة

بمّ
محمد الحسّناوي

دار عمّار
عمّان

المكتب الإسلامي
بيروت

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

المكتب الإسلامي

بَيرُوت : ص.ب. ٣٧٧١/١١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - بَرقِيَا : إِسْلامِيَا
دَمَشَق : ص.ب. ٨٠٥ - هاتف ١١١٦٣٧ - بَرقِيَا : إِسْلامِيَا

دار عَمَّار

الأردن - عَمَّان - سَوْت البَتْرَاء - قَرَب الجامع الحَسِينِي
ص.ب. ٩٢١٦٩١ - هاتف ٧٨٣٢٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الفرز والمحصاري

محاسنه ومساوئه

سنة الله في الكون أن يولد الإنسان صغيراً ثم ينمو ويتربّع ويشب حتى يكبر فيعمر فيهرم ويموت، وكذلك الحضارة كالإنسان والحيوان والنبات.. تلد وتنمو وتزدهر ثم تذبل وتندثر. وكما أن النبات والحيوان والإنسان — قبل موته وبعد موته — يؤثر في غيره من النباتات والحيوانات والناس.. سلباً وإيجاباً، كذلك الحضارة تؤثر في غيرها من الحضارات في حال ازدهارها وحال اندثارها سلباً وإيجاباً فالنبته الحية تأخذ الهواء والماء والغذاء في الضوء والدفع من الطبيعة، ثم تتمثل هذه الأشياء جميعاً لتنتج الأوراق والثمار والنباتات الجديدة، وبعد حين تضعف وتموت وتغدو سماداً لغيرها، أو غذاء للحيوان والإنسان. ودورة الحياة في الحيوان والإنسان والحضارة تشبه دورة حياة هذه النبته أيضاً. وتبادل التأثير بين الكائنات الحية يمكن أن يكون عفويّاً، كما يمكن أن يكون مقصوداً؛ فالنبات يستمتع بالدفع والضوء الشمسيين بشكل عفوي كل يوم تقريباً، ولكن المزارع يلجأ أحياناً إلى طرق صناعية توفر

لنباتاته في الشتاء.. الدفء والضوء الصناعيين بنسب محدودة وأوقات معينة وأساليب مقصودة. والمثال نفسه نجده في العلاقة بين الحضارات، فالتأثير الحضاري يمكن أن يكون عفويًا بحكم الجوار والاحتكاك والتفاوت في سلم المدنية أيام السلم.. كما حدث ذلك في أسبانيا حينما كانت الحضارة الأندلسية في أوجها وأوروبا في عصورها الوسطى المظلمة. ويمكن أن يكون التأثير الحضاري مقصوداً بحكم التوجيه والتعليم المباشرين والغزو والفتح.. فالديانات والحركات الإصلاحية حركات حضارية مقصودة موجهة تبدأ من الفرد إلى الجماعة الصغيرة فالجماعات الكبيرة.

والتأثير الحضاري وجه مشرق لانواع التأثير بين الامم والثقافات، فهناك وجه آخر مظلم هو التدمير أو التأثير غير الحضاري كموجات التتار والمغول والاسبان والصليبيين التي أغارت على الحضارة الاسلامية فأتت عليها أو كادت لأنها موجات جاهلة خاملة متفسخة ظالمة.

وربما اختلط التأثير الحضاري بالتدمير الحضاري في حالات كثيرة اختلاط السم بالدسم.

اليوم:

واليوم يقف العالم الاسلامي موقف المجال الحيوي للحضارة الغربية (الاوربية) شاء أم أبى، فالحضارة الغربية في أوجها.. والعالم الاسلامي في بداية يقظته. الحضارة الغربية قوية مشرقة غنية ضخمة ساحرة باهرة.. والعالم الاسلامي ضعيف مظلم فقير منكش

خامل مزدري (!) وهذه الاسباب المتقابلة تكفي وحدها لحبك خيوط التفاعل الحضاري .

لكن :

ولكن هناك تساؤلات خطيرة تخطر على البال :
أولاً : ما الحضارة ، وما تركيبها ؟
ثانياً : لماذا تهوي الحضارات بعد ازدهارها ؟
ثالثاً : هل الحضارة وحدة (كل) لا يتجزأ ؟
رابعاً : ما موقف الوريث الجديد للحضارة المنهارة ؟
خامساً : ما موقف العالم الاسلامي من الحضارة الغربية ؟
فلنحاول الاجابة على كل تساؤل من هذه التساؤلات بقدر الامكان .

أولاً :

ان الحضارة أية حضارة تتألف من اتحاد عناصر ثلاثة هي (الانسان والزمن والتراب) اتحاداً متيناً موجباً فعلاً . ولما كان الانسان هو العنصر الموجه المؤثر المتغير بين العناصر الثلاثة وجب علينا رصده ودراسته أولاً وآخراً . فالانسان بعقله وعضلاته .. بعقول أخوانه البشر وعضلاتهم ... يستنبط من التراب الذهب والحديد والفضة والبتروكول ، ويستفيد من مرور الزمن لزيادة القوى والانتاج والمعارف . والانسان فرداً وعضواً في المجتمع وعنصراً من عناصر الحضارة .. ليس فكراً محضاً ولا روحاً ولا شعوراً محضاً ولا قوة عضلية

وحسب! بل هو إلى ذلك ذو رسالة في الارض تقتضيه فيما تقتضيه واجب عمارة الارض والتعايش مع أبناء جلدته ومع عناصر الكون الاخرى بتعاون وسلام. وواضح أن أي مشروع — مهما كان بسيطاً — كانشاء بيت — لا يمكن أن ينجز لمجرد اجتماع الفأس والدلو والماء والتراب والحجارة والحبال والحديد وعضلات الانسان، هذا اذا اجتمعت هذه الاشياء عفواً، بل ان حاجة الانسان إلى هذا البيت، والتصميم الذي وضعه له قبل انشائه، والجماعة التي عملت معه على انشائه، والروابط، والصلات الاجتماعية التي ألفت بين عناصر هذه الجماعة حتى اجتمعت وتساندت.. كل ذلك يدخل في الحسبان. وعليه.. ان الذي يجمع بين الانسان والآخر وبين الجماعة والجماعة أو بين الانسان والزمن والتراب.. جمعاً تركيبياً فعالاً هوشياً خاص يسمى الثقافة، والثقافة رصيد فكري ينطوي على خبرات الافراد والجماعات فيما بينهم وبين أنفسهم، وفيما بينهم وبين الكون أو الطبيعة، وفيما بينهم وبين الله تعالى. فالثقافة تعتمد على الخبرة أو المعرفة اليقينية المنزلة من عند الله وتعتمد على الخبرة التجريبية المكتسبة بعد المحاولة والخطأ في اطار البيئتين الاجتماعية والطبيعية كما تعتمد الثقافة على الخبرة الظنية التأويلية. وكل خبرة من هذه الخبرات تمثل عنصراً من عناصر الثقافة كالدين والعلم والفلسفة. والفلسفة وجه آخر للدين، ذلك الدين الذي لم ينزل من عند الله بل اخترعه حكماء القبيلة أو كهان الجماعة، على أن وظيفة الدين والفلسفة واحدة وهي وضع نظام للعلاقات بين عناصر الكون فيما بينها. وأبرز خصائص الدين التي تتعلق بالمجتمع الانساني والتركيب

الحضاري هي الاخلاق ولكن شتان ما بين الاخلاق الربانية
والاخلاق الشيطانية.

فالدين والعلم يؤلفان الثقافة، والثقافة هي عالم الافكار الذي
يحيط المجتمع الحضاري فيوجهه ويحكمه ويرقيه طالما كان الدين
والعلم يؤديان دورهما خير أداء دون تصادم أو تهاون؛ لانها جناحان
متكاملان لا يتناقضان ولا يتعارضان، لكل منهما اختصاصه
ومجالاته.

العلم الحقيقي يخدم الدين الحقيقي بتسفيه الاوهام والخرافات
والشعبذات وانارة العقول والمدارك، كما أن الدين الصحيح لا يعرقل
نمو العلم الصحيح بل ربما حض عليه وطلب الاخذ به والاستفادة منه
كما في الدين الاسلامي.

هذه ناحية، وناحية أخرى ان العلم الصحيح متطور أي ينشأ
بسيطاً أو غامضاً ثم ينمو ويضطر عبر الاجيال والحضارات حتى
يتعقد ويتوسع ويتفرع ويرسخ بنيانه فهو عالم متحرك، بينما الدين
الذي ينطوي على الاخلاق.. بطبيعته ثابت، ويجب أن يكون ثابتاً،
فالصدق والامانة والاخلاص والتعاون حقائق ثابتة كشوت الطول
والقصر والسواد والبياض؛ لكي لا تلعب الالهواء والمطامع
والانانيات بالقانون الذي يحكم الجماعة وهو الدين أو الاخلاق.
وهذا لا ينفي الفروق الثانوية بين الاديان السماوية التي نزلت على
التوالي وأخذت تتكامل على مرور الزمن مناسبة لأحوال الامم التي
نزلت عليها والازمنة التي نزلت فيها حتى جاء الاسلام كاملاً شاملاً

خاتماً. كما لا ينفي الحيز الاجتهادي الذي تركه الله للمسلمين في دينهم ومعاملاتهم لما له من علاقة بالامور المتبدلة المتطورة في الحياة الاجتماعية تطور العلم والصناعة والمجتمعات.

وليس يغني العلم عن الدين ولا الدين عن العلم على الرغم من المحاولات الكثيرة التي بذلت في هذا السبيل منذ القديم حتى اليوم، فالماركسية والرأسمالية تلحان من حيث تشعان أو لا تشعان على الروابط الانسانية والعلاقات الاجتماعية وأهميتها في زيادة الانتاج وتحسينه وتعترفان بدور الافكار في توجيه الاعمال.. مما له العلاقة الوثقى بالاخلاق والدين. لان الدين هزة وجدانية تصهر الجماعة وتؤلف بين عناصرها قال الله تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ (١).

واذا كان لا بد من الترجيح بين العلم والدين، فالدين هو الراجح، لان العلم نتاج الجماعة، بينما الدين هو الذي يجمع الجماعة ويؤلف بينها فضلاً على أن يوجهها إلى طلب العلم. كما أن الدين الصحيح يحرر العقل من الوهم والخرافة ويضع الاطار النظري العام للانسان والكون والحياة، فيرى من خلاله المتدين الاشياء في الطبيعة أشياء خاضعة للمس والنظر والتجريب لا آلهة مقدسة مخيفة، وان كانت هذه الاشياء منيرة كالشمس والقمر والنجوم أو قوية كالريح والبحر والنهر، وان كانت محرقة كالنار وولودة كالأعضاء الجنسية.. فهي كلها أشياء.. أشياء، لا تقُدس ولا تحتقر.

سورة الانفال: الآية ٦٣.

ثانياً:

عندما تهب العاصفة على الغابة فان الشجرة الهرمة المتآكلة وحدها هي التي تتحطم، وكذلك الحضارة.. تسقط من الداخل، تسقط أو تأخذ بالسقوط حينما ينفط عقد تركيبها الحضاري المؤلف (من الانسان والزمن والتراب) وهذا التركيب — كما رأينا — يلعب فيه الانسان الدور الاول، ولكي يلعب الانسان هذا الدور القيادي لا بد له من الثقافة التي هي العلم والاخلاق؛ بل النظرة المستقصية لأسباب سقوط الحضارات المعروفة حتى اليوم.. تشير إلى أن الاخلاق هي العامل الحاسم فكثيراً ما كانت العلوم في أوج ازدهارها حين تفاجأ حضارتها بالضربة القاصمة، كما حدث للحضارة الاسلامية عند هجوم التتار على بغداد، وعند انقضاء الاسبان على الاندلس، وكما حدث للحضارة الرومانية أيام هجمات الامواج البربرية على روما. وكما وقع لامبراطوريتي كسرى وقيصر أيام الفتح الاسلامي مع الفارق بين الامثلة.

الحضارة كالنبته، كالعمارة.. تحتاج إلى جهود، إلى جد، إلى صبر، إلى فائض من القوى، إلى ارادة واعية هادفة.. لكي تنمو وتزدهر. والاخلاق وحدها التي توفر هذه الاشياء. فهي بالنظام توظف أعضاء المجتمع الحضاري في أماكنهم المناسبة دون صدام أو تشتت أو ارهاق أو عطب، وبالجهد تهيه لهذا المجتمع فائضاً انتاجياً دائماً راجحاً من فكر وصناعة وفن، وبالارادة الواعية تشد الناس إلى أهدافهم ومثلهم العليا باستمرار.. فاذا ظهر المحراف في الطريق قامت جماعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وترد السالكين إلى الغاية المنشودة،

وبالتكشف ذلك الضريبة الاخلاقية تضمن فيضاً من الانتاج وتحفظ النفوس من الميل إلى الدعة والكسل وكذلك بالتضحية يستشهد الجندي ويسهر العالم المخترع والرسام المبدع ويتعب العامل والفلاح، وبالحب يتماسك هذا المجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، اذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الاعضاء بالسهر والحمى. وهكذا تتجمع المحاصيل النافعة والقوى الضخمة، فتقوم الحضارة، ويضطرد العمران أكثر فأكثر. أما اذا ذهبت هذه المظاهر أو انحلت الاخلاق فتفتشت الفوضى والترف والبذخ والاسراف — قال الله تعالى: ﴿واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ — ومعاقرة الخمور والركون إلى شهوات النفس والجنس واقتناء الجواري الوصيفات والعبيد والمغنيات والانانية واستعباد الافراد والجماعات والتهرب من المسؤولية.. في مجتمع ما، فقل على هذا المجتمع السلام.

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
ثالثاً:

لكل حضارة تركيب معين من اتحاد العناصر الثلاثة، (الانسان، الزمن، التراب) يختلف عن تركيب حضاري آخر في شدة تماسك هذه العناصر ونوع الاخلاق أو الثقافة التي توجه العنصر الاساسي وهو الانسان، وبذلك تختلف مثلاً العادات والتقاليد وأزياء الشباب وتخطيط المدن وهندسة المساكن والأذواق والأطعمة

(١) سورة الاسراء: الآية ١٦.

... مما له علاقة بالاخلاق والدين أو بالأحوال الاجتماعية أو الاحوال الطبيعية كالمناخ والارض. ولكن هذا التركيب الحضاري يجب أن يكون متماسكاً حتى يستطيع انشاء حضارة، وهو قادر على دعم مجتمعه الحضاري ما دام كذلك، فاذا تخلخل التركيب أو انحل رباطه بانحلال الاخلاق.. كانت الطامة والانهار، لان التخلخل البسيط مهما كان بسيطاً في البداية — سيكون بعد حين هوة عميقة، كانفراج الزاوية الذي يبدو ضيقاً في بدايته يغدو واسعاً جداً في نهايته. وهكذا يصبح التركيب الحضاري مجرد تجميع وتكديس لعناصر الحضارة كالانسان والزمن والتراب.. أو لمظاهر هذا التركيب من أخلاق فارغة جامدة وصناعة كمالية مترفة وأوقات مهدورة مضبغة في اللهو والكسل وعقول مغرورة متعالة سطحية وجيل متواكل فخور بأبائه وأجداده لا بأعماله ومبتكراته. فالحضارة تظهر وحدة متماسكة وتؤول إلى أجزاء مبعثرة فيها الغث والثين بعد أن تتم دورتها الحضارية.

رابعاً:

أما موقف الوريث للحضارة المنهارة، المرشح لانشاء حضارة جديدة فهو موقف يختلف كل الاختلاف عن موقف المجتمع الذي مالت حضارته إلى السقوط، لان المجتمع المريض لا يحس بأمراضه، واذا أحس بها فانه ينكرها أو يتجاهلها كالعيوب التي يسعى إلى تغطيتها؛ وعلى كل حال لم يستطع حتى الآن مجتمع حضاري أن يمسك حضارته عن السقوط بعد أن بلغت أوجها، عرف أسباب

السقوط أو لم يعرفها. الوريث الجديد سوف ينشيء حضارة جديدة بتركيب حضاري جديد، يضم هذا التركيب فيما يضم البقايا المشرقة من الحضارة السابقة كالمكتشفات العلمية والانجازات الفنية، كما يضم الوثبة الاخلاقية التي افتقدتها الحضارة المنهارة على مرور الزمن، هذه الوثبة التي تستمد غالباً من الاديان السماوية مباشرة أو بالمحاكاة. وليس على الوريث الجديد أن ينتظر تدهور الحضارة حتى تنهض حضارته، بل الحضارة الجديدة تشق طريقها حالما تصل تلك إلى أوج ازدهارها أو قبله بقليل.

نحن والحضار الغربية:

والآن وقد أصبحنا مجالاً حيويّاً وهدفاً طبيعياً ومقصوداً للحضارة الغربية.. وجب أن نحدد سياستنا تجاهها. لقد فاجأتنا هذه الحضارة بالغزو الاستعماري بعد أن تأمرت على الخلافة الاسلامية المتمثلة بالدولة العثمانية، وتقاسمتها تقاسم اللصوص لغنيمة من الغنائم؛ فكان موقفنا منها الرفض المطلق، فلم تياس بل عملت على (فرنجتنا) لا على تحضيرنا بما استخدمته من قوانين ودساتير في حكمها لنا وتوجيه سياستنا الداخلية والخارجية، وبما أسست من مدارس التبشير ومؤسساته وأجهزته، وبما ابتكرته من فنون الدعاية والتوجيه في الاذاعة والصحافة والطباعة والحركات السياسية السرية والعلنية.. إلى أن جاء يوم آتت فيه هذه السياسة أكلها، فخرجت الجيوش العسكرية ولم تخرج الجيوش الحضارية فكراً وأخلاقاً، فوقع العالم الاسلامي في بلبلة وتناقضات لا أول لها ولا آخر فانقسم الناس بين

مقبل على هذه الآثار الغربية ومعرض عنها ومذبذب بين هذا الموقف وذاك. ولكننا نعترف بأن صغير القاطرة واشراق الكهرباء وسرعة السيارات وسحر المطبعة وروعة الآلة وما شاكل من الفتح العلمية والصناعية قد غطى على الجانب الاخلاقي، وهر الكثيرين من العامة والمثقفين، فأقبلوا على هذه المظاهر حاملين مستسلمين، أما الجمهرة الكبيرة التي رفضت الحضارة الغربية فقد أخذت تنكمش وتنحسر شيئاً فشيئاً بالانقراض أو بالخضوع للتيار الاجتماعي الغالب، فلم يعد مستغرباً أن ترى المسلمة الكاسية العارية تصلي وتصوم، والعالم المسلم يرتدي المعطف والسروال الأجنيين. أما الفريق الذي رفض الحضارة الغربية رفضاً مطلقاً فقد ثبت خطأ انزاله وجموده عند حد معين من المستوى الحضاري الذي أصبح اليوم نسياً منسياً، فأخلاقه جوفاء تقليدية لا تخلو من الرياء والخذلقة والتصنع والجهل والضيق، وعلومه لا تتعدى ارتكاز الارض على قرن ثور وتسطح الارض والاعتماد على المحراث الروماني. أما الفريق الآخر المناقض لهذا الفريق، المقبل على الحضارة الغربية اقبالاً أعمى دون روية أو تمييز.. فقد أخذ يبدو لكل ذي عينين مدى انحرافه وانحرافه، لانه كالفريق السابق مغال في الافراط أو التفريط لا يعرف سنة الله في الكون ولا دورة للحضارات ولا تركيب عناصرها ولا اعراضها وأمراضها؛ فالفريق الاول رفض الجانب المشرق من الحضارة وهو العلم وانكب على أخلاق تقليدية، على حين انهر الفريق الآخر أمام اشراق العلم فتناسى أخلاق الغرب؛ وليت العلم الذي بهر اشراقه قد أنار بصيرته وأيقظ وعيه. كلا انه لم يقبل على منابع النور على عالم

الافكار بل أقبل على عالم الاشياء على الازياء والتقاليد واقتناء السيارة والمذياع والتلفزيون دون معرفة العلوم التي انتجتها ولا المراحل التي مرت بها حتى أصبحت بمتناول يده، فبات سلعة حضارية مثلها يزرع القطن، ويحصد القمح، ويجمع الصوف، ويمتص البترول، ويصدر انتاجه البكر إلى الغرب وهو يمتص التبغ أو يلعب النرد منتظراً عودة الباخرات المحملات بمنتجات الحضارة لا بأفكارها وعلومها وفنونها.

وإذا كانت سنة الله وطبيعة الحياة.. أن يهب فريق ثالث في العالم الاسلامي، يبرأ من آفات هذين الفريقين ومن عقدهما الحضارية في الافراط والتفريط.. في الاحباط والصراع، فيقوم مقام الطليعة النخبة الواعية لحقيقة الغزو الغربي والمركة الحضارية، ويتخذ الموقف المتوافق المتوازن.. فان المسألة اليوم أخطر من أي عصر سابق؛ لان هذه الحضارة الغربية قد بلغت مفاصلها وأنانيتها حداً خطيراً، شأن العجوز المتصايبة على حافة القبر.. تتمسك بالحياة بكل ما أوتيت من قوة، وتتعاطى العقاقير المنشطة دون جدوى، وكلما لاح لها المصير المحتم لوحث بالقنبلة الذرية لكي لا تهلك وحدها؛ وتصر إلى اليوم على الاستعمار العسكري والفكري والاقتصادي وعلى التمييز العنصري والتهالك على الشهوات الجنسية والربا والميسر، ولم تؤدها حربان عالميتان هزتا كيائها هزاً، الامر الذي يعرقل اضطراد سير الفريق الاسلامي الواعي لدوره الحضاري الجديد.

والامر الآخر.. هو أن المرشحين لوراثة الحضارة الغربية ليسوا

فريقاً واحداً، فالامم النامية حديثاً كشعوب آسيا وأفريقيا كلها مرشحة لهذا الدور، متنافسة عليه، فأية ثقافة ستكون الوريث، أهى الثقافة الاسلامية أم البوذية أم الكونفوشية أم اليابانية؟! ولكن الارادة الواعية في المجتمع الاسلامي يمكن أن تحث الركب وتنظم القوى، كما أن عظمة الثقافة الاسلامية جديرة بلفت الانظار اليها وعطف القلوب عليها.

وأمر ثالث.. هو صعوبة التمييز بين عناصر هذه الحضارة المترنحة التي تدافع عن مواقعها شبراً شبراً، فلقد أنشأت الفلسفات الضخمة لتبرير أعراضها وأمراضها، فالماركسية اختلاجة كبيرة من اختلاجات النزاع الاخير، وهي تبرير لاعتماد الحضارة الغربية على المادة والعلم دون الاخلاق، أما الوجودية فهي لون آخر من ألوان الحركات الدفاعية للحضارة الغربية، فهي فلسفة تبرر الانانية والفوضى العالمية والاختلاق المنهارة من جهة، وتصدر هذا السرطان الفتاك إلى الشعوب النامية الفتية لتدمرها كالعالم الاسلامي من جهة أخرى، فأية حضارة كهذه الحضارة تعمدت دس السم في الدسم والاعمار بالتدمير؟!.

ولهذا كان واجب النخبة الاسلامية أن تنصب موازين النقد والتحليل لهذه الحضارة كي يصار إلى اختيار النافع وعزل الضار. وأن تنمي الوعي الحضاري في العالم الاسلامي فتشرح دورة الحضارات وأسرار الغزو الحضاري وأنواع التأثير الحسن والسيء بين الحضارات عامة وبيننا وبين الحضارة الغربية خاصة. وأن توضح دور الاخلاق

بل الدين في ايقاد الجذوة الحضارية وتنميتها ورعايتها . وأن تلح دوماً على تميز الكيان الاسلامي من الكيانات الاخرى لا سيما كيان الحضارة الغربية ليستطيع المسلم النظر اليها نظرة حيادية مستقلة نقادة من عل .

أما تأثير الحضارة الغربية خيراً أو شراً فانه مستمر لا سيما عن طريق أجهزة الاعلام والاحزاب المستغربة ، حتى يبلغ حد الاشباع المحتم . والمأمول ألاّ يصل العالم الاسلامي إلى هذا الحد الا والطليلة الاسلامية قد أمسكت بدفة التحويل الحضاري والوثبة الاسلامية .

مراجع البحث:

- ١ - سلسلة مشكلات الحضارة، للاستاذ مالك بن نبي .
- ٢ - سلسلة الكاتب الانكليزي كولن ولسون الحضارية :
(اللامنتمي - سقوط الحضارة - طقوس في الظلام) .
- ٣ - من روائع حضارتنا، للدكتور مصطفى السباعي .

إِشَارَاتُ الْحَقِّ عَلَى الْوَاجِبِ ظَاهِرَةٌ غَيْرُ حِصْنَانِيَّةٍ

في كل بلد فرد يطالب بحقوقه، من
يستطيع أن يمنح هذه الحقوق؟ ولمن؟

— أحد المفكرين —

يولد الانسان وتولد معه الحقوق والواجبات، فلكل انسان حقوق
وعليه واجبات. من حق الطفل على ذويه أو على المجتمع الغذاء
والكساء والحماية والتعليم.. ومن الواجب عليه أن يؤدي لهم
واجبات الطاعة والتقدير والمعونة والشكر كفاء ذلك. والامر نفسه
بالنسبة للجماعة تجاه الجماعة من اصغر الحجوم إلى أكبرها.

ولما كان الانسان ومن ثم الجماعات في تذبذب دائم بين نزعتي
الاثرة والمشاركة الجماعية الفطريتين... نهض الضمير أو العرف أو
القانون بدور الموجه المنظم الذي يعمل على اقامة التوازن كلما أصابه
الخلل. وبقدر الاعتماد على الضمير أو القانون يتمايز الافراد
والجماعات في مدى الرقي، اذ ليس سواء من يؤدي واجبه عن
طواعية ومن يحمل على أدائه حملاً.

وإذا كان الانسان الفرد يقدم جهوداً لنفسه أو للآخرين لتوفير الحد الضروري للعيش أو لتخزين وفر احتياطي يدرأ احتمالات المستقبل أو لضمان النعيم.. فان الجماعة متضامنة لدفع الاخطار المحدقة أو لبناء الحضارة.. سوف تقدم جهوداً أضخم لتخزين انتاج مستمر، اذ الحضارة باختصار.. جهود اضافية بذلها العباقرة والعاديون على حد سواء، وعلى اختلاف في الاهمية والكمية. وبتعبير آخر: ان الحضارة مجموعات كبيرة من التضحيات المحتزنة المتكاملة. وكلما عظمت هذه الجهود الاضافية والتضحيات وزادت جودة كانت الحصيللة أي الحضارة عظيمة. وكلما بذل كل فرد أو جماعة أقصى ما في الطاقة.. كان الوضع الحضاري سليماً، والخط الاجتماعي سديداً.

أما أنواع الجهود المبذولة فتدرجة من النصيحة إلى الجهد العضلي البسيط إلى تقديم المال إلى بذل النفس الذي هو أقصى غاية الجود قال الشاعر:

جود الرجال من الايدي وجودهم
من الكلام.. فلا كانوا ولا الجود

وقال الرسول عليه السلام: (تبسمك في وجه أخيك صدقة، واماطة الاذى عن الطريق صدقة). وقال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ. فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى

القاعدين أجراً عظيماً. درجات منه ومغفرة ورحمة، وكان الله غفوراً
رحيماً ﴿١﴾.

يرى علماء التاريخ ودارسوا الحضارات ان للدورة الحضارية ثلاث
مراحل بين الميلاد والافول تسمى المرحلة الاولى باسم مرحلة الروح
والثانية مرحلة العقل والثالثة مرحلة الغريزة. وأياً ما كانت الاسماء
فالملاحظ أن مرحلة الروح التي تسمى كذلك مرحلة البطولة (٢).
تتميز بخصب العطاء الذي يقدمه الفرد والجماعة فوق القدر
الضروري بل فوق ما يمكن أن تبذله الطاقة البشرية، فكأن الجيل
الاول سبكة من الفدائيين والصديقين والشهداء، كل فرد يفتدي
الآخر أو المبدأ المشترك بالمال والنفس.. فاذا الارض بطرفة عين غير
الارض عدلاً وبنیاناً.

أما المرحلة الثانية فأبناؤها أقل عطاء وأكثر استهلاكاً لغراس
الاجداد، فاذا جاءت المرحلة الثالثة انعدم العطاء وتفشى التكالب
على الدنيا، وعمت الاثرة، فكان العقم والغروب فالانهيار.

روى ابن كثير في (البداية..) ان التتار أحاطوا بدار الخلافة
العباسية يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى اصيبت جارية كانت
تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة خطاياه، جاءها
سهم من بعض الشبايك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة،
فانزعج الخليفة المستعصم من ذلك، وفزع فزعاً شديداً (٣). وبعد أن

(١) سورة النساء، الآيات ٩٤-٩٥.

(٢) شروط النهضة — الطبعة الثانية — مالك بن نبي — ص ١٩-٤٦.

(٣) البداية ج ١٣ — ص ٢٠.

تحدث ابن كثير عن فظائع الطغاة التتار بالمسلمين آخر الخلافة العباسية تضرع إلى الله وقال: (يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دُفِعوا من العدو إلى أمر عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه) (١).

هذا المستعصم بالله (؟) حكى عنه أنه لما ترامى إليه نبأ سقوط أطراف الخلافة تحت زحوف التتار.. قال: (انهم لن ييخلوا عليّ من هذه الخلافة المترامية الاطراف أن يتركوا لي ملك بغداد). فكان ان مات دهباً في جوالق تحت الاقدام.

فأين نحن من هذه الدروس؟؟

يقال إننا في عصر النهضة، عهد اليقظة، مرحلة الوثبة من صعيد التخلف والتبعية إلى سماء العزة والريادة. فهل نحن كذلك؟؟

هل يؤدي كل منا واجباته قبل أن يطالب بحقوقه، فضلاً عن توضيحته بحقوقه وإيثاره للواجبات؟؟

لا، لا، أبداً.

ما السبب؟

أهي رواسب عهود الانحطاط، أم هي التبعية لمجتمعات بلغت المرحلة الحضارية الاخيرة مرحلة الغريزة والكسل واللهو والعقم... كالمجتمعات الاوربية اليوم، الآخذة بفلسفة المنفعة (البراجماتزم) في التفكير والسلوك والانتاج والسياسة، أم هي الاتجاهات التي استنبتها منظمات لها شأن كبير في المجتمع أم مجموع ذلك كله؟؟

(١) المصدر نفسه. ج ١٣ - ص ٨٩.

إذا كانت رواسب عهود الانحطاط قدراً قاهراً نقضيه شيئاً
فشيئاً، وكان التأثير بنفوذ الحضارة قانوناً اجتماعياً لا مهرب منه،
فإن الداهية الدهياء والطامة الكبرى من المنظمات المتصدرة عن
وعي وتصميم ما بعده تصميم لتوجيه الجماهير ورسم المصير. حين
تؤجج نار الاثرة بمختلف انواعها على حساب الواجب المشترك،
جهلاً بالمعادلات الحضارية ومراحلها، أو تجاهلاً ينطوي على
الاستهواء ووضع المطامع والمكاسب العاجلة المدمرة موضع التضحية
والايثار. قال الشاعر:

وان الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جداً
فإن اكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هؤوا غيبي هويت لهم رشداً
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقد

التبديل الاجتماعي

المجتمع الاسلامي هو التجسيد المادي للاسلام في الصحة والاعتلال. ولما كان الاسلام مثلاً أعلى في الكمال والصحة، ولما كانت الشبهات التي تثار حول الاسلام، والحملات التي تحيىضه، وانحسار ظله الحقيقي عن ثغوره، والحيف الذي حاق به عبر التاريخ.. انما يرجع اكثر ذلك إلى المسلمين أنفسهم، إلى الذين هانت نفوسهم، وانشقت عصاهم بجهلهم لدينهم، وانصرفهم عنه، وجودهم على رسوم جوف لا تغني ولا تسمن من جوع، ولا تدفع ظلماً ولا تبني مجداً، فضلاً عن ان تقيم حضارة جديدة، وتسعد انسانية، ولما كان اهتمام الدعاة الاكبر إلى يومنا هذا منصرفاً إلى عرض الاسلام روحاً وفكراً وتشريعاً وتاريخاً.. لهذا كله — وجب الالتفات إلى المجتمع الاسلامي الحديث، لتيسير تطبيق الاسلام وبناء مجتمعه الأمثل على أسس راسخة وتخطيط واع.

ميزة الحركات الاسلامية:

وهذا لا يعني ان المسلمين، بما فيهم العاملون، قد غفلوا عن المجتمع تماماً، بل ان الميزة الاولى للحركات الاسلامية في عصر

النهضة هذا.. هو ذلك الاحتفال المتعظيم بالاصلاح الاجتماعي، والاهتمام الواضح بأحوال المسلمين في شرق الأرض وغربها، لكنه اهتمام الجريح بالجريح تأسيباً وتسليية، لا اهتمام المغيث بالمستغيث على الأغلب لاعتبارات كثيرة^(١). ومن نافلة القول ان نشير إلى ان الاستعمار ودوائر استخباراته وحركات التبشير على وعي تام ومعرفة كاملة بالمجتمع الاسلامي واتجاهاته وظروفه وثغراته، وعلى أساس من هذا الوعي والمعرفة يتلاعب الاستعمار والتبشير والصهيونية بمجتمعاتنا ومقدراتنا واتجاهاتنا اياما تلاعب^(٢). فلا أقل من أن نعرف انفسنا بقدر معرفة اعدائنا بنا.

اما دراسة المجتمع الاسلامي لاصلاحه، فليست بالأمر السهل، ولكن الذي يسهل الدراسة شق الطريق واقامة الصوى والسير الحثيث المستقيم. وأول مرحلة موضوعية من مراحل الدراسة التعرف على الشيء المدروس تعرفاً أولياً واضح المعالم والأبعاد، وحسبنا ما عانى العاملون من الخوض في المجتمع على غير هدى كالحابط في الظلام أو الحارث في البحر، وهل وعظ بعض الوعاظ وخطب نفر من الخطباء الا من هذا القبيل؟

(١) انظر (الاسلام في القرن العشرين) لعباس محمود العقاد. و (واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم) لأبي الأعلى المودودي. و (حاضر العالم الاسلامي) لشكيب ارسلان ولوثروب ستودارد. و (المسلمون في الهند) لأبي الحسن الندوي.

(٢) انظر كتاب (التبشير والاستعمار) لفرونخ والخالدي. و (الاستعمار الفرنسي في افريقيا السوداء) لفيليب قونداسي.

ان احدنا اذا دعي إلى قيادة سيارة، ولم يكن قد مارس قيادتها من قبل، يجد نفسه بحاجة إلى معرفة اجزائها واجهزتها وأسايب توجيهها، ان لم نقل بحاجة إلى دورة تدريبية عليها. هذا اذا كانت السيارة سليمة صالحة للسير، فهل يعرف الداعية المسلم مجتمعه مثل هذه المعرفة، وهل مر بدورة تدريبية على فن الدعوة والاصلاح والتربية، مع العلم أن السيارة آلة جامدة لا تعصي قائدها ما أمرها، على حين أن تكوين الانسان الفرد أكثر تعقيداً واشد مراساً، فكيف بالمجتمع الذي هو مجموعة افراد ومجموعة صلات متشابكة تزداد صعوبة وتعتدأ في أحوال الضعف والانحلال.

وان هناك نفراً من الناس — صالحين أو طالحين — قادرون على التأثير البعيد في المجتمع، كاللاعبين المهرة في لعبة الشطرنج. وما مخطط الشطرنج الا مثل مبسط لمخطط المجتمع. فتبديل حجر بحجر قد يعني الفوز الباهر، كما يعني الخسارة الفادحة، وعلى قدر احاطة اللاعب بدور كل حجر وموضعه وعلاقته بغيره سلباً وإيجاباً في الحاضر والمستقبل.. تتحدد النتيجة. وكما ان المهارة في فن من الفنون كلعب الشطرنج ترجع إلى واحد من اثنين — الموهبة أو الخبرة المكتسبة، ومثل ذلك التبديل الاجتماعي. لكننا مصير المجتمع لا يعلق، ولا يجوز أن يعلق بظهور الموهوبين، لأن خسارة شوط الشطرنج ليست كخسارة مجتمع بأسره. فالخريص على الفوز في لعبة الشطرنج ازاء منافس ماهر.. تراه يستعين بالأنصار والمشيرين فاذا الكثرة تغلب الشجاعة كما يقال. فلنتعرف على مجتمعنا، ولنتبين سبلنا خلال شعابه ومفازاته.

عناصر المجتمع :

ان المجتمع أي مجتمع كل يتألف من اجزاء ومن مجموعة علاقات وصلات مترابطة متشابكة تخضع لقوانين معتبرة على الرغم من صعوبة التقنين والتأويل في العلوم الانسانية (وتتلخص هذه العلاقات في تفاعل فرد مع آخر أو مع الجماعة أو مع الثقافة القائمة، وهو مؤثر فيها أو متأثر بها. هذا وتمتد هذه العلاقة إلى تبيان اثر الجماعة في جماعة اخرى ومدى تأثرها بها)^(١).

ولكي نتجاوز النظرة الكلية إلى المجتمع خشية أن نصدم بشكل عام مبهم تنطبع عليه أوهامنا وتصوراتنا الخاصة المسبقة انطباع الناظرين إلى بطاقات (رورشاخ)^(٢) فنقع فيما وقع فيه نفر من المسلمين فتفاءلوا كثيراً، أو تشاءموا فيئسوا فماتوا غيظاً أو انقلبوا على الأعقاب.. علينا أن ننظر نظرات تحليلية احصائية موضوعية متفحصة، ولنطبق منجزات علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي على مجتمعاتنا العربية والاسلامية، فاذا مجتمعنا يتألف من فرد وأسرة وحي وقرية ومدينة وقطر، كما يتألف من مؤسسات عامة وخاصة مثل مؤسسات التعليم والإرشاد والإعلام والنقابات والنوادي والطوائف الدينية والعنصرية والقطاعات المدنية

(١) من كتاب (علم النفس الاجتماعي) لفؤاد الهي السيد — ص ٧٧. وانظر (علم النفس الاجتماعي) لأوتوكلينبرغ ترجمة الجمالي.

(٢) وهي بطاقات عليها بقع من (الخير) غير محددة الاشكال يفسرها الناظر فيها تفسيراً معبراً عن نفسيته بشكل عفوي، وقد يختلف تفسيره قليلاً أو كثيراً عن ناظر آخر، مما يخدم التحليل النفسي.

والعسكرية وما إلى ذلك. وإذا تركيب كل من هذه الأجزاء والمجموعات يختلف من واحدة لأخرى بحسب البيئة والثقافة والسلوك، فمنها البسيط والمعقد، ومنها الوارد والشارد، ومنها الصحيح والعليل، وإذا بنا نقف على تناقضات وعوالم طريفة كلما ازددنا بحثاً وتمحيصاً، مع العلم أن غايتنا أبعد من غاية العالم الاجتماعي الذي يكتفي بالوصف والاحصاء والتقرير فنحن نمضي معه حيثما يمضي تمهيداً لوضع الحلول وتأليف تركيبات اجتماعية أصح وأفضل بعد الاستفادة من معطيات المجتمع الواقعية وقوانين الاجتماع المضطردة.

وفي طريقنا سنصادف انماطاً شتى من السالكين اللابسين لباس الإصلاح عن حسن نية أو سوء طوية، فالانقلابيون يعيشون في الجيش، والانتهازيون يتهافون على أبواب الحكام أو على أعمدة الصحافة وأجهزة الإعلام. على حين يربض الاحتكاريون في ميادين الاقتصاد، والماركسيون في الأحياء العمالية واكواخ الفقراء، فأين ميدان دعاة الاسلام بالضبط؟

منهج الدعاة:

الحق ان الاسلام رسالة عامة شاملة لا تنحصر بزمان أو مكان ولا بجنس أو فئة أو طبقة، وواجب دعائه ايضاح ذلك، وميدانهم هو المجتمع بأسره. المجتمع العربي والاسلامي أولاً. والمجتمع الانساني الكبير ثانياً. وهذه مهمة شاقة لا ينهض بها الا الرجال أولو العزم والقوة البريئون من الأغراض والمطامع، الواهبون نفوسهم

لله . فاذا كان المجتمع كله ميداناً للدعاة فهل يعني ذلك ان يعملوا على قلة العدد والعدة في الجهات جميعاً؟ أو يعني أن يختاروا بعض الميادين دون غيرها، أو بعض الأساليب دون سواها؟ والجواب على هذا السؤال يختلف من وطن إلى وطن، ويتأثر بإمكانيات الدعاة من جهة وبظروف البيئة نفسها من جهة ثانية، حتى اذا كانت البيئة متقلبة لا سيما من الناحية السياسية لزم تلاؤم العمل الاسلامي وكل ظرف جديد لا تلاؤم التبعية ولا تلاؤم الانتحار، بل تلاؤم الذكي الذي يشق دروبه الوعة بوعي وأناة، فاذا انسد بعضها انطلق في بعضها الآخر. يتيسر هذا التكيف الحي بسرعة للعاملين اذا كانوا على معرفة مسبقة بالعناصر التي يتركب منها المجتمع وباحتمالات تبدها عاجلاً أم آجلاً. وعلى الرغم من ذلك تضطرد أمور عامة ثابتة، يحسن أن يفتن اليها الدعاة على اختلاف الأوطان منها ما يلي :

١ — ليذكروا ان عليهم اختيار ميادين اكثر جدوى وأبعد أثراً وأكثر ملاءمة لدعوتهم، وبالمقابل الا يغفلوا عن الميادين الأخرى التي يفزوها عدو خطير، وليكن دور الاسلام فيها على الأقل دور الدفاع .

٢ — المجتمع الاسلامي قد ابتعد عن الاسلام ببطء، ولن يعود اليه بسرعة أو بطفرة أو بقسر أو بمغامرة، بل بالتربية والاقناع، سيما وان الجيل المتقدم الذي نشأ على اصل معوج يصعب تقويمه، وهذه المقدمات تسلمنا إلى الاهتمام البالغ بالجيل الجديد الناشئ

وباجهزة التعليم — مناهج واساتذة وطلاباً للبناء، وباجهزة التوجيه والارشاد كالمساجد والنوادي الثقافية للدعم، وباجهزة الاعلام للتنشيط أو للدفاع على الأقل.

٣ — رصد الفرص والمناسبات لخطوات اجتماعية واسعة، ذلك لأن المجتمع على اتساعه وكثرة اجزائه وتعقيده يهتز ويتأثر بأدنى تبديل يطرأ على جانب من جوانبه كمثل الجسد الواحد، أو كمثل كفتي الميزان. فالتحكم بالمناسبة المواتية ضرب من التحكم بدقة المجتمع بأسره. والعقبة الكأداء قد تصبح فرجاً مفاجئاً، والقوة القاهرة قد تنقلب إلى قوة صديقة بحسن تدبر. فالانسان القديم حين اعترض النهر سبيله ولم يقدر على اجتيازه التى بجذع شجرة يابسة على صفحته وركبها. والذي يداهمه ثور هائج في مكان ضيق ربما حطم قرنيه بفقرة إلى أعلى أو يمين أو شمال.

٤ — التصدي لقضايا المجتمع الكبرى بعد استقرار مشاكل قطاعات المجتمع جميعاً، مثل الاستقلال والسلم والحرب، والاقتصاد والدستور.

٥ — تهيئة قادة اجتماعيين بالاصطفاء والاعداد للتخطيط أو للقيادة، فرب فرد اغنى ما لا يغنيه عدد كبير من الناس.

٦ — مراقبة حركات الخصم ومواقفه (الاستراتيجية) لا سيما المدارس التبشيرية والصحافة المشبوهة، والتشهير الدائم بها.

٧ — التوسع بالدراسات الاجتماعية لمعرفة نفسية الجماهير،

وتشكل الرأي العام، وصفات الزعيم ونفسية الجماهرة، وحركات الجماعة، وعوامل ازدهارها واندثارها.

٨ — ليس المجتمع الاسلامي مادة غفلاً أو بمعزل عن التيارات الخارجية بل هو كأي مجتمع آخر يتأثر بما حوله، وهو كباقي مجتمعات آسيا وأفريقيا النامية الواقعة ضمن دائرة نفوذ الحضارة الغربية.

٩ — تبني الدعوة إلى استقلال مجتمعاتنا عن مجتمع الحضارة الغربية في العادات والمثل العليا والاخلاق حفاظاً على شخصيتنا ووجودنا، وتمهيداً لإنشاء حضارة جديدة اسمى من حضارة الغرب العرجاء.

ولعلي أخيراً أكون قد وفقت إلى لفت نظر اخواني العاملين إلى امر لم يغفلوا عنه كل الغفلة ولكنهم لم يقدروه حق التقدير — وهذا حسبي.

أبعاد التبدل الاجتماعي

إن التغير كمّاً وكيفاً، صعوداً وهبوطاً.. من علامات الكائن الحي ودلائل الحياة. فالطفل يشب فيزداد طوله ووزنه ويتغير صوته، والبذرة تنبت النبتة فتورق وتزهو وتثمر، وكذلك الشعوب والدول المتخلفة الآسيوية والأفريقية، المستقلة حديثاً أو في سبيل الاستقلال والتي تشكل دول العالم العربي والإسلامي أكثريتها.. تشهد تغييرات وتبدلات اجتماعية كثيرة، لأنها —حقاً— من الدول النامية، الطامحة إلى مزيد من الاستقرار والرفاه والاطمئنان، ومن حولها دول كبرى سبقتها أشواطاً في مجالات العلم والصناعة والفن. ولكن ما هي هذه التبدلات، ولماذا تحدث، وكيف تحدث؟

إن التفاوت في سلم الحضارة يهيب بالشعوب والدول المتخلفة إلى التقدم باطراح أسباب التخلف واتخاذ أسباب التقدم في مختلف المجالات: أي تبديل شيء بشيء، ووضع بوضع، ومنهج بمنهج.. لتحقيق التقدم المنشود وتوفير النمو المضطرد. والشكل الظاهر لهذه الخطوات هو التغير والتبدل، على أن يكون التبدل انتقالاً إلى ما هو أفضل. ويلاحظ على هذه المراحل وهذه التبدلات

ملاحظات عدة. فمثلاً قد يكون التبديل واعياً منظماً أو عشوائياً غائياً، وقد يكون سريعاً أو بطيئاً، وقد يكون عميقاً أو سطحياً، وقد يكون أصيلاً أو مستورداً. وذلك كله يرجع إلى القوى العاملة على هذا التغيير من قوانين التفاعل الحضاري العضوي .. إلى رغبة الأمم المتخلفة نفسها بالتبديل ومدى وعيها له ... إلى تدخل الأمم المتحضرة في مصير الأمم المتخلفة وإلى غير ذلك. وبوسعنا أن نقترح تصنيفات تقريبية لهذه التحولات ولمراحلها المتباينة المتعاقبة عسى أن تجلى وتفهم فنقف منها الموقف الواعي المناسب.

١ - التبديل الشكلي:

هو أبسط أنواع التبديل وأسهلها، وأسرعها ظهوراً وزوالاً، وأقلها فائدة، وأبعدها عن التأثير الفعال في خط السير الحضاري. ويمكن أن نجد له نماذج في مستويات عدة: ففي مستوى الحكم يبدو على شكل إنقلاب عسكري عرضي نتيجة نزوة طائشة أو طموح فردي أو تأثير أجنبي مباشر أو غير مباشر.. وفي مستوى التقاليد والعادات الاجتماعية يتجلى على شكل تبديل لباس بلباس أو عيد بعيد. وفي مستوى الوسائل والأدوات يظهر على نمط الإفادة العاجلة من منجزات الحضارة كاصطناع السيارة بدل الحمار للسفر والنقل. هذا النموذج من التبديل قد تكون له فوائد مباشرة قريبة، لكنها تظل محدودة، وربما يصبح خطراً محدقاً إذا ركب رأسه واستبد أو إذا تكرر وصرف الأنظار والعقول عن التبديل العميق الجاد بعيد الجذور والآثار.

التبديل القاصر:

أما هذا النوع فهو درجة أعلى من التبديل السابق في تركيبه وظهوره وزواله وآثاره. ويقع موقعا وسطا بين التبديلين الشكلي والحضاري، وهو على الغالب يعقب التبديل الشكلي في التسلسل الزمني، لأن الإعداد له يحتاج الى زمن وجهود وقوى أكثر من الأول. فالنوع الأول قد يقوم به فرد طامح أو فئة من الأصدقاء المتنفذين أو عصابة انتهازية أو ظرف عابر، على حين لا يتييسر أن يضطلع بالنوع الثاني القاصر إلا جماعة منظمة أو مؤسسة اجتماعية ذات روابط وخطط وأتباع. والذي جعل هذا النوع من التبديل قاصراً أو مغايراً للتبديل الصحيح سبب واحد أو أكثر من الأسباب التالية:

أ — سياسة القلب والتبديل لمجرد التبديل جهلاً أو تحمساً أو حقداً وتقليداً ومرضاً.

ب — الخروج على سنة التبديل الصحيح باستعمال العنف، أو استعجال الثمرات، أو تخطي المراحل دون ضمانات.

ج — قصور المنهج أو المخطط: مثل الاهتمام بجانب واحد من جوانب المجتمع، كدعم الاقتصاد دون الأخلاق، والجيش دون الثقافة، وطبقة خاصة دون المجتمع، والقوم دون الانسانية وبالعكس.

د — تخلخل القوى العاملة على التبديل مباشرة، لضعف الأواصر الداخلية، أو غموض الأهداف، أو تحكم المصالح والأهواء، أو قصر النظر.

هـ — تدخل عناصر أجنبية ثقافية أو غير ثقافية.

و — فقدان الأصالة، أو التحدّد بحدود الحضارة المعاصرة وحدها وهي تتفكك. وهذا النوع من التبدّل يكون عقبة بقدر ما هو مرحلة في سبيل التبدّل الصحيح، وهو أشبه ما يكون بمرحلة المراهقة عند الإنسان، مرحلة القلب والاندفاع والعنف والتطرف والتذبذب بين الاعتماد على النفس أو على الآخرين. وفي دول آسيا وأفريقيا لا سيما العربية والإسلامية نماذج كثيرة لهذا النوع والنوع الذي سبقه.

التبدّل الحضاري:

هو أسمى أنواع التبدّل وأعمقها، وأسلمها وأصعبها وأكملها، وأكثرها ثباتاً، وأصلبها عوداً، وهو التبدّل المنشود، وتسميته بالتبدّل الحضاري خير ما يناسبه بكل ما في المصطلح من معنى وما ينطوي عليه من قيم وأبعاد ومميزات. مثل هذا التبدّل يمكن أن يرصد في مستويين: عضوي وقصدي.

أما المستوى العضوي، فهو التفاعل البسيط العادي بين عالم الثقافة المتحضرة وعالم الثقافة المتخلفة عن كل صعيد وفي كل زمان ومكان وبأية مرحلة، كأنه أمر حتم لا بد منه ولا مفر ولا مانع يمنعه. وأثره يبدأ من سطح المجتمع المتخلف إلى أعماقه يتوغل فيها شيئاً فشيئاً حتى يلتقي بالمستوى القصدي الذي يتحكم به أخيراً ويتمثله جذباً ودفعاً، ذلك لأن هذا المستوى العضوي من التبدّل ينجم عنه ما ينجم عن كل تصرف ساذج لا يخضع للوعي والمقارنة والتحريض والاختيار، أي بتعبير آخر يغدو مجالاً لتسرب النافع والضار إلى

المجتمع المتخلف، بانطباعه بعادة التقليد أو بما يحمله هذا التقليد من منجزات صالحة وطالحة: كالإفادة النافعة من معطيات الحضارة الغربية في الصناعة والعلم والتقنية وكالتقليد الضار للمفاسد الأخلاقية التي ضاقت بها الحضارة الغربية نفسها.

أما المستوى القصدي، فهو الطريق الذي تسلكه جماعة أو جماعات منظمة ذات مخطط شامل وأهداف حضارية، وقيادة ناضجة وقاعدة شعبية متماسكة ومجال بشري واسع. هذه الجماعة فيها ما في الفئات الآنفة الذكر من رغبة في التبديل، ولكنها تختلف عنها من أوجه عدة: فهي مثلاً تعرف المعركة التي تخوضها، فتسمي الأشياء بأسمائها (إستبدال حضارة هرمة آفلة بحضارة نامية جديدة) وتدرك أن التبديل الصحيح لا يكون بتظاهرة عاطفية عابرة أو انقلاب شكلي أو مخطط مبتور أهوج أو إراقة الدماء البريئة أو المغامرات أو استيراد أفكار جاهزة، بل بدراسة عميقة لواقع مجتمعيها وإمكانياته، وكشف لكنوز الأصالة والبطولة والإيمان، وتمثل صائب واع لمنجزات الحضارة الغربية باختيار النافع الخالد من علم وصناعة واطراح الشائب من مفاسد أخلاقية وتفكيك إجتماعي وقحط روحي وجشع مادي وتمييز عنصري، ثم العمل على إنضاج تركيب حضاري جديد أصيل راسخ، يخطو بالإنسانية المعذبة وبشعوب آسيا وإفريقيا المتخلفة إلى آفاق السعادة والإطمئنان والسلام في الدنيا والآخرة، بتخليصها من آفاقها المزمنة وإمدادها من معين سائغ لا ينضب.

الأدب الحضاري

هذا المقال يتجاوز — لعدة اعتبارات — ذلك الخلاف المستحكم بين الادب الملتزم والادب غير الملتزم، وان كان الادب الحضاري هو الذروة المثلى للادب الملتزم، والحديث عنه دفاع عن الادب الملتزم في وجه من الوجوه.

والتعريف الاولي للادب الحضاري: هو ذلك الادب الذي مهد لظهور الحضارات الانسانية، أو رافقها منذ نشأتها، وساعد على اكتمالها وازدهارها. والمتأمل الواعي للذرى الحضارية التي شهدتها الانسانية، وما انطوت عليه من مدلولات.. يتعرف على الدور الفعال الحاسم الذي لعبه الادب الحضاري أولاً، ويقف على الخصائص الاساسية العامة لذلك الادب ثانياً.

أما توضيح الدور الفعال الحاسم الذي أداه الادب الحضاري في ظهور الحضارات وازدهارها فأمر يطول، ويغني عن ذلك ان نشير الآن إلى ان رسالات السماء إلى الارض كانت تؤدي بأقوال أو تعاليم أو صحف أو كتب، كما أن الثورات الاجتماعية الاخرى كانت تنتهج النهج نفسه. ولعل البحوث المستفيضة وحدها هي التي تستطيع ان تجزم بأن الشرارة الحضارية الاولى كانت

للادب، وان زيت الحضارات ومشكاتها عبر الاجيال والعصور هو
الادب الحضاري.

وأما خصائص الادب الحضاري فيمكن حصرها في عدة
خصائص بعد الرجوع إلى أدب الحضارات المعاصرة والسابقة
والتأمل فيها وتمييز الصحيح والزائف من خصائصها والتأليف
بينها. ولعل أهمها سبع: (الجد — الهدف — الصدق في العاطفة
والموقف — الفن — التنوع — الرصيد الفكري — التدوين).

وخاصة الجد تعني أن ينصرف الادب للموضوعات الهامة،
الموضوعات التي تقرر مصير الجماعات البشرية في العيش والكرامة
والحرية. او بعبارة أخرى أن لا يساهم الادب في الاضرار بهذه
الجماعات عن قصد أو دونما قصد، فالادب الذي يؤدي الظلم
والاحتكار والفوضى لا يختلف كثيراً عن الادب المائع الذي يلهو
للهو ويعبث للعبث فيغش النفوس ويصرفها عن المثل الاعلى أو
عن حل المشكلات الاجتماعية.

والجد وحده لا يكفي اذ لا بد من وضوح الهدف وتمييزه وتفرد
لكي تجتمع عليه الجهود الجادة، فلا تتضارب أو تتناحر أو تتبعثر أو
تتيه. اما ان يكون جد بلا هدف او ان تتعدد الاهداف فذلك
منتهى التضليل والضياء. فالاديب أو المصلح يعاني في مرحلة الجد
والتأمل حالة من الحيرة، فان لم يحدد هدفه، ان لم يميز البداية
والنهاية او الغاية، ضاع في القطيع الهائل او اعتزل. بل نستطيع
ان نوسع دائرة الجد فنفي صفة الجدية عن أدب جدي لا هدف له

وان نقبل أدباً يتهكم على الطواغيت او الامراض الاجتماعية أو التقاليد الفاسدة أدباً جاداً.

ولما كانت قيمة الافكار تناط بأصحابها، بحماستهم لها، باستمرارهم عليها، بالتزامهم لمضموناتها، بتضحيتهم لها: فيظهر صدقها بصدق عواطفهم وصدق مواقفهم. ولما كانت الاسواق تجمع اعمالاً ادبية كثيرة متباينة في مجتمع واحد وعصر واحد، فلا يميز الغث من الثمين الا الصدق، ولما كانت الافكار الحضارية تستدعي ردود فعل عكسية إلى جانب الردود المواتية، فيكون البقاء للأصديق.. للحق.. وجب ان يتميز الادب الحضاري بالصدق في العاطفة المتأججة الدائمة والموقف الشريف الصريح، وهل يبقى شيء من الجلد حين يتخلى صاحبه عنه من الداخل أو الخارج، بينه وبين نفسه او بينه وبين الناس.

والفكرة التي تتمتع بالجد والصدق وتحدد الهدف (أو بما يؤدي إلى جميع ذلك) ليست قوية قوة الفكرة التي تخطر بخلية الفن وحلته، ولا تدخل مداخلها في القلوب والآذان والافواه، ولا تخلد خلودها مع الايام، فالعرب الذين سحروا بالقرآن الكريم كانوا يعرفون مواضع السجود في الشعر فيسجدون لها، وقد اغواهم الشعر وصرفهم عن الاسلام حين من الدهر. والفن لا تهبط قيمته في الادب الحضاري — وان كان وسيلة من وسائله، لان اكتمال الجانب الفني في الادب الحضاري كمال لهذا الادب نفسه، وكان

القرآن يتوسل إلى القلوب والعقول بالفكرة القوية والفن المعجز معاً
فاذا اضمنا إلى الخاصة الفنية البيانية خاصة التنوع في الاشكال
والقوالب (كالخطابة والقصة والشعر والمقال..) وفي الموضوعات
فقد اتينا على غاية المنحى الجمالي في الادب الحضاري، لان تنوع
الاساليب والقوالب والموضوعات مما يفتح السبل للأفكار ويقرب
الشقة بين الناس والادب ويحببه اليهم على قدر عقولهم واذواقهم.

أما الخاصة السادسة فهي الرصيد الفكري، وهذه الخاصة من
الاهمية بمكان في أدب ينشر الوعي وينبه الافئدة والابصار، ويمهد
لانقلاب اجتماعي جذري أو لاتجاه حضاري يخرج بالامة من
واقعها الهابط الخامل الجاهل. ولا ينافس هذه الخاصة في اهميتها
وفعالياتها الا الخاصة الفنية التي سبق ان تحدثنا عنها، ذلك لانها
لحمة الادب الحضاري وسداه، تنافح كل واحدة منها عن
الآخرى. وليس شرطاً في الرصيد الفكري ان يكون على قدر واحد
من الكثافة في جميع الاعمال الادبية، لكننا يشترط فيه — مهما
كانت درجة كثافته بين عمل ادبي وآخر — ان يكون فكراً
صحيحاً عملياً بناء، لا فكراً مريضاً سوداوياً أو جدلياً سفسطائياً،
أو خيالياً متطرفاً. واسمى ما يبلغه الرصيد الفكري من الكمال
حين يكون فكراً يقينياً منزلاً من عند الله أو معتمداً على الفطرة
الانسانية الراشدة.

وتلوذ بهذه الخصائص السابقة خاصة سابعة لا يستغني عنها
الادب الحضاري الذي وجد ليعمل ويؤثر باستمرار على مر العصور

والاجيال الا وهي التدوين ، ومن التدوين يتفرع النشر والتوزيع
وحسن العرض .

فالادب الحضاري: أدب جميل، أدب هادف، أدب جاد،
أدب صادق، أدب معقول، أدب خالد.

صُورَةُ أُدُبِيَّةٍ مِنْ صُورِ الْمَعْرِتِ الْحَضَارِيَّةِ «١»

يمر العالم العربي والعالم الاسلامي اليوم بمرحلة هامة من مراحل الصراع مع الحضارة الغربية، وهي مرحلة ما بعد الاحتكاك المباشر التي ستمنح عن نتائج حاسمة. والادب المنشود اليوم شعراً أو نثراً هو المرأة التي تعكس صوراً لهذا الصراع فتجلوه وتبرزه، أو تساهم فيه رائدة وموجهة. وبين أيدينا الآن قصيدة «راهب الحقل» للاستاذ الشاعر محمود غنيم، المنشورة في العدد (١٠٢٠) من مجلة الرسالة الصادرة في القاهرة بعد احتجاب طويل. هذه القصيدة عمل أدبي من الاعمال الادبية الاسلامية التي تمثل المرحلة الحضارية التي نعاصرها.

الوحدات الفكرية:

تتمتع قصيدة «راهب الحقل» بوحدة الموضوع، اذ تتحدث عن الفلاح في الريف، وما يمت إلى هذا الفلاح.. ولكن أي فلاح؟ في أي مكان يعيش؟ وفي أي زمان هو؟ في القصيدة فكرتان أساسيتان تتخللهما أفكار أبسط. فالفكرة

الاولى تعرض لنا الفلاح المصري في بيئته، ثم تعقد مقارنة بين حياته وحياة أهل المدينة عبر مشاهد متتابعة. أما المشهد الاول فيرسم لنا صورا لإيمان هذا الفلاح الفطري:

راهب خط في القرى محرابه
بين شط الغدير واللبلاء
عاش للحقل والنبات فكانا
دينه في حياته وكتابه
عرف الله فطرة لا اكتساباً
فرجاً عفوه، وخاف عقابه
ما احتواه في الله شك ولا طو
لُ التحري عنه أثار ارتياحه
حسبُه أن كل شيء بهذا الـ
كون يُومي اليه بالسبابة
عرف الله في الطبيعة عطفاً
وحناناً وقوة غلابه

أما المشهد الثاني فيقلب طرفنا في صفاته: من صلابة عود:
من قواها استمدّ قوة زندي
ـ ومن شمسها استعار خضابه

ورقة طبع:

رب طبع من الغدير استقاه
فهو ينساب في الحياة انسيابه

وحب للارض:

منح الارض لا المِلَاح هواه
فهو صب بها عميق الصبابة

ودأب على العمل في الشباب:
كادح في شبابه ما قضى في
مسرح اللهو والمراح شبابه

وقوة ووقار في الشيب:
وإذا شاب لم يزل عوده كالنب
ع فيه بقية من صلابه
يلبس الشيبَ هالةً من وقار
لا الضنا شأنه ولا النقصُ شبابه

وطهارة ثوب:
لم يُزَيَّنْ ثيابه النقشُ لكن
زَيَّنَ الطهرُ والعفاف ثيابه

وازرقاق في العيون:
زرقة اللون في العيون وأخرى
في السماوات زانتا جِلِبابه
أما المشهد الثالث فيمضي بنا إلى عالمه النفسي، فهو مطمئن
البال:

وإذا خاف من حساب عسير
ذو ثراء فما أخفَّ حسابَه

آمن وادع:

يحسد القصر كونه رب كوخ
هو للأمن والسلام مثابه
أين عش رفَّ النعيم عليه
من قصور رانت عليها الكآبه

تطربه موسيقى الحمام والسواقي:
القمارى من حوله والسواقي
تلك عود وهذه شَبَّابه

وهو قانع راض:
لم يؤرقه في مناط الثريا
مطلب راح يرتقي أسبابه
مكتف من طعامه بكفاف
قانع من شرابه بصبابه
رضيت نفسه فعاش سعيداً
ولقد يسعد الرضا أصحابه
في سكون القرى ينام ويصحو
ماله في المدائن الصَّخَّابه

وفي المقارنة بين حياة هذا الفلاح وحياة أهل المدن يشير
الشاعر إلى ضحايا المدينة:

أنا من ضاق بالخواضر ذرعاً
وأواها فحطمت أعصابه

كم لها كالملاح والراح صرعى
خدعتهم أضواؤها الخلابه

كما يحدثنا عن مدرسة الفلاح وعلومه الفطرية:

حسب هذا الأمي أرض براح
هو في لوحها يجيد الكتابه

خامل من يراه غير نبيه
وجهول من بالجهالة عابه

هولا يرتقي المنابر لكن
فأسه في الثرى تجيد الخطابه

لوترى ما يخط محرائه في
أرضه قلت آية في النجابه

إن للكون معهداً لم يشقّف
بدواة ومرقم طلابه

لم يسجّل علوقه في كتاب
أو يدوّن في معجم آدابه

وعن صداقاته:

وبه تشغف السوائم حبّاً
ويراها دون الورى أحبابه

ربطئه بكل ذات ثغاء
أو حوار مودة بل قرابه

رفقة يأمن الصديق أذاها
لا بدساسة ولا كذابه

كم سقته من الحليب زبيباً
أبيض اللون لا يُضيغ صوابه
ثم عن صداقات أهل المدينة:
كم صديق من وجهه يقطر الش
رُ ولا يأمن الصديقُ غيابه
ومن الناطقين من هو أضرى
من أفاعي وكرٍ ومن أشد غابه
وهنا يصل الشاعر إلى الفكرة الثانية التي تصور مأساة هذا
الفلاح:
ما لهذا الملاك أمسى وأضحى
وهو نهب مقسّم لعصابه
صرفوا الراهب البتول عن الله
به وصاروا من دونه أربابه
أمنّ العدلي أن يعيش أسير ال
حقول من شابّ بالدماء ترابه؟
وهو من أخرج الثُضار من الأُر
ض وصفّى من التراب لُبابه
كم جنى القمح عسجداً وجنى القط
ن لُجيناً وبات يلعقُ صابه
يطرق الخيرُ كلَّ باب إذا ما
أثمرت أرضه ويترك بابَه

صراع بين حضارتين:

المدينة في بلادنا لا سيما العاصمة.. تكاد تكون نسخة طبق الاصل للمدن الاوروبية، بينما الريف عندنا أكثر تمثيلاً لشخصيتنا وثقافتنا بسبب احتجابه عن التأثيرات الاجنبية ومحافظة على الفطرة الانسانية (كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو يمجسانه)، لذلك كان بوسعنا أن نرى في الصراع القائم اليوم بين الريف والمدينة.. صراعاً بين عالمين، صراعاً بين العالم الاسلامي والحضارة الغربية إلى حد كبير. فالثقافة الأصيلة، ومنها الثقافة الاسلامية، تنطلق من الاخلاق فتؤمن بالله وتعتمد على الفطرة الانسانية الصافية القوية العاملة الدائبة المخلصة في اطار من العفة والجد وجو من السلام والامن والتعاطف مع عناصر الكون من انسان وحيوان ونبات. أما الثقافة الهرمة، ومنها ثقافة الحضارة الغربية، فيختلط فيها الحابل بالنابل بعد أن دارت الحضارة دورتها وأدت الاخلاق مهمتها، فمالَت حضارتها إلى السقوط والاضمحلال، وأخذت تؤمن بالطاغوت من مال وأهواء، وتعتمد على المظاهر المصطنعة المتكلفة والمجتمعات الضعيفة المخمورة الالهية الكسول، التي تعيش على جهد الآخرين وتمتص دماءهم وخيراتهم وتحترها بكل جشع وغرور وتعال وحقد على عناصر الكون الاخرى من انسان وحيوان ونبات. وهذه هي الحال إلى حد كبير بين الريف في بلادنا وبين المدن الكبرى، كما رأينا في هذه القصيدة. فالفلاح مؤمن بالله من خلال تجربته الريفية الفطرية، صلب العود، رقيق الطبع، محب لأرضه، مجد في عمله، وقور،

ظاهر الذيل، سامي الطرف، باله مطمئن، وعيشه آمن وادع، وموسيقاه هديل القمارى وخري السواقي^(١)، غير جشع ولا طماع، بينما يضحج ابن المدينة من صخبها وارهاقها للأعصاب ومن الضحايا المكدوعة ببريقها الزائف ولذاتها المحرمة. نعم ان الفلاح لم يدرس في مدرسة، لكنه مفن يرسم على لوح الطبيعة خطوطاً خضراء وحمراء وسوداء وصفراء، فيها البهجة والمتعة والغذاء، فنذا الذي يجبرو على تجهيله والغض منه، لئن خانتة الفصاحة والبلاغة لقد أحسنت فأسه ما هو أجدى وأسمى. انها مدرسة الطبيعة العملية الفعالة، انها المدرسة الفنية الراقية التي ينادي بها اليوم كبار فلاسفة التربية وعلى رأسهم (جون ديوي) بعد أن استشرت السطحية والتقليد في الثقافة، واتسعت الهوة بين العلم والاخلاق، وقصرت أجهزة التربية والتعليم عن اللحاق بركب الحضارة، وعم القلق والتناقض والفوضى. انظر إلى هذا الفلاح كيف يتعاطف مع أغنامه وثيرانه حباً ومودة، ثغاؤها يطربه وشرابها يسكره. وانظر إلى أهل المدينة كيف يتدابرون ويتشائمون ويتآمرون في السر والعلن، ثم لا ينسون أن يعكروا صفو حياة الفلاح فيسومونه سوء العذاب، ويسلبونه حريته، ويسرقون قمحه وقطنه ليتمتعوا بخيراتها دونه ويصبح نهباً للفقير والمرضى والشقاء.

(١) ولعل هذا المثال يفسر لنا اتجاه الفقه الاسلامي إلى تحريم كثير من آلات الموسيقى، لانها أدوات هوصناعية تصرف الانسان عن التمتع بموسيقى الطبيعة من خري وزقزقة وهديل وثغاء وحفيف وهدير وعويل وعواء ومواء وزئير وغير ذلك من أنغام وألحان.. تذكره بنفسه وبخالقه وبنظام الكون.

الآفاق الفنية:

هذه الافكار الرفيعة قد سبكها الشاعر في قالب أرفع.. من منطق حلو، وموسيقى عذبة، وصور غنية، ومشاهد حية، والتفات عاطفية مؤثرة. فقد أحسن الشاعر فيما أحسن اختيار موضوعه والزاوية التي رصد بها. ولئن عمد إلى الرمز أو لم يعمد لقد كان النص موحياً غنياً بالظلال والایماءات المعبرة عن الصراع الحضاري بين الريف والمدينة أو بين الشرق المسلم والغرب. وإذا كان الفلاح عند الناس وعند رجال علم الاجتماع رمزاً لدرجة حضارية منخفضة، لأن مقياسهم بالأشبار لا بالافكار، فان الشاعر قد أغنى مضمون هذا الفلاح حتى بات أكثر تقدماً وسعادة من خروشوف وكنيدي معاً. ولا يحظرون في بال أن الشاعر قد انكفأ عن الحضارة نهائياً بتفضيله الريف على المدينة، بل انه تحول عن مظاهرها المتكلفة إلى صفاء الفطرة الذي وجدته في الريف، وهذا التحول خطوة أولى نحو حضارة جديدة لو أعمنا النظر.

كما أن الشاعر قد وفق في توجيه الايقاعات النفسية، لا سيما تقسيمه النص إلى فكرتين رئيسيتين: الاولى حياة الفلاح السعيدة، والثانية انقلاب هذه الحياة السعيدة وانتقاضها. وقد عرض الفكرة الاولى خلال ستة وثلاثين (٣٦) بيتاً على حين أجل الثانية في ستة أبيات وحسب. ذلك ليتسنى للقاريء أن يعيش مع الفلاح فترة أطول وأن يتجاوب معه في ايمانه وأخلاقه وبساطته وطهره وحائمه وسواقيه وقناعته ومدرسته الريفية وصدقاته مع الانعام

والشيران خلال المقارنة تلميحاً أو تصريحاً بالمدينة وأهل المدينة وزيف المدينة.. حتى يصبح القاريء فلاحاً، أو يجب أن يصبح فلاحاً. فاذا جاءت الفكرة الثانية المختصرة وصورت فداحة المأساة التي نزلت بالفلاح فعكرت صفو عيشه.. فانما تعكر صفو القاريء أيضاً، لانه قد تهيأ فكرياً ونفسياً وعاطفياً نتيجة ذاك العرض الفني المفصل الجميل لحياة الفلاح السعيدة.

هذه الطريقة النفسية في العرض لم يخطئها الشاعر ايضاً في عرضه للأفكار الثانوية، بل زاد عليها، واعتمد على أسلوب المقارنة بين عدة متناقضات.. بين الريف والمدينة، بين الكوخ والقصر، بين الايمان والشك، بين الفطرة والاكتساب، بين الجد واللهو. والمقارنة ها هنا ملائمة كل الملاءمة للموضوع الذي هو في أساسه مقارنة بين عالمين متباينين: الريف والمدينة، مما اقتضى المقارنة بين أجزاء كل منهما، فناسب الكلام مقتضى الحال كما يقول البلاغيون بحق. على أن الشاعر لم يعتبط بالمقارنة اعتباطاً، بل اختار لها الملامح المميزة، والسمات البارزة في عالم الريف والمدينة. فالريف جمال وهدوء وايمان وجد وحب وقوة وقناعة. أما المدينة فتكلف وضجيج وشك وهو وغيبة وخمول وجشع.

وهذه الملامح المميزة لكل من الريف والمدينة لم تسرد سرداً جافاً مجرداً على لسان مؤرخ أو فيزيائي، بل اقتطعت من الحياة صوراً ولوحات حية، فهي هو ذا يصور لنا محراب هذا الفلاح ببساطة، كما نراه حين نمربه في أية ساعة من ساعات الصلاة:

راهب خط في القرى محرابه
بين شط الغدير واللبابة

و يقارن بين كوخه وبين القصور بصور تكاد تكون نقلاً أميناً
للواقع :

يحسد القصر كوخه رب كوخ
هو للأمن والسلام مثابه
أين عش رف النعم عليه
من قصور رانت عليها الكآبه
القمارى من حوله والسواقى
تلك عود وهذه شبابه

وها هو ابتكر صورة ذهنية مناسبة لدراسة الفلاح وثقافته :

هو لا يرتقي المنابر لكن فأسه في الثرى تجيد الخطابه
لو ترى ما يخط محراثه في أرضه قلت : آية في النجابه
إن للكون معهداً لم يثقف بدواة ومرقم طلابه

فهو يشخص الفأس وينطقها كأى خطيب بارع، كما يشبه
المحراث بالقلم الذي يخط ويكتب، ويشبه الكون بمعهد كبير،
ولعمري حقيقة هذا أم تشبيه، انه الاثنان معاً، وهذا هو الابداع .
ولا يقف خيال هذا الشاعر عند هذه الآفاق، بل يمضي بنا إلى
أفق أرحب ألا وهو أفق الخلود.. فتتموج تجربته الشعورية اتساعاً

وعمقاً حتى تتعاطف مع عناصر الكون من نبات وحيوان محبة
وصحبة وقراءة:

عاش للحقل والنبات فكانا دينه في حياته وكتابه
وبه تشغف السواثم حباً ويراهما دون الورى أحبابه
ربطته بكل ذات ثغاء أو خوار مودة بل قرابه
رفقة يأمن الصديق أذاها لا بدساسة ولا كذابه
كم سقته من الحليب زيبياً أبيض اللون لا يُضيع صوابه

أما العاطفة فهي مبثوثة في النص بثاً خفياً شفافاً، يتم عنه
التصوير الحي للريف وحياة الفلاح الهائنة، وذلك التنديد
بالاقطاع وحياة المدن. وقد يفلت الزمام من الشاعر أحياناً، وحق
له ذلك، فيلتفت إلينا لينبها التفاتات مباشرة ويهتف بأعلى
صوته:

أنا من ضاق بالخواضر ذرعاً
وأواها فحطمت أعصابه
كم لها كالملاح والراح صرعى
خدعتهم أضواؤها الخلابه

ويتساءل ويتعجب تساؤلاً مريراً مباشراً يستنكر فيه مأساة
الفلاح:

ما لهذا الملاك أمسى وأضحى
وهو نهب مقسم لعصابه؟

صرفوا الراهب البتول عن الله
 — وصاروا من دونه أربابه
 ثم يصرخ صرخات محام عنه، مخلص له، وإع لقضيته،
 متحمس لها:

أمن العدل أن يعيش أسير الـ
 حقل مَنْ شَابَ بالدماء ترابه؟
 وهو من أخرج النُّضَارَ من الأر
 ض وصفى من التراب لُبابه
 كم جنى القمح عسجداً وجنى القط
 — لجيناً وبات يلحق صابه
 يطرق الخير كل باب إذا ما
 أثمرت أرضه ويترك بابه

وأخيراً هل أسف الشاعر في ألفاظه أو تراكيبه، هل فترت
 قافيته هل اضطربت موسيقاه، هل ترنح ترنُّح أكثر الشعراء
 المحدثين الهاربين من العمود الشعري الاصيل عجزاً وجنباً، كلا
 انه سجل للعمود الشعري وللتعبير الفصيح الجزل الواضح المشرق
 نصراً جديداً، فأثبت مرة أخرى أن العمود الشعري يتسع للتجديد
 في الموضوع والافكار والصور والعرض والموسيقى، بل هو أقدر من
 غيره على ذلك، فالمشكلة مشكلة شعراء لا مشكلة عمود.

وهكذا كانت هذه القصيدة صورة جميلة من صور المعركة
 الحضارية، فيها الجمال الفني والغنى الفكري على حد سواء.

بين محمود غنيم وأحمد حجازي:

بعد فراغي من دراسة هذه القصيدة تذكرت ديوان «مدينة بلا قلب» للشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، فتصفحته، وتصفحت المقدمة التي كتبها له الاستاذ رجاء النقاش، فخطر لي عقد مقارنة بين هذين الشاعرين المصريين المعاصرين اللذين عبرا عن تجربة شعورية واحدة وهي أزمة الريف والمدينة.

ولد أحمد عبد المعطي حجازي في الريف المصري وتطبع بطباعه وصفاته، فلما شب ودخل القاهرة صدم بعالم جديد «حيث التشتت والقلق والوحدة والانفراد وتمزق العلاقات الانسانية وقسوتها في الحب والصداقة وعلاقة العمل... في المدينة حيث هذا كله يحن (ابن الريف) إلى الحياة الوداعة الطيبة الضيقة المنسجمة مع بعضها في معظم القضايا والعلاقات» فيقول الشاعر في قصيدة (لن نغني):

وأنا ابن ريف
ودعت أهلي وانتجعت إلى هنا
لكن قبر أبي بقريتنا هناك، يحفه الصبار
وهناك ما زالت لنا في الافق دارا
... أين الطريق إلى فؤادك أيها المنفي في صمت الحقول؟
لواني ناي بكفك تحت صفصافه
أوراقها في الافق مروحة ... خضراء هفهافه
لأخذت سمعك لحظة في هذه الخلوة،

وتلوت في هذا السكون الشاعرى حكاية الدنيا
ومعارك الانسان والاحزان في الدنيا .
ثم يقول في قصيدة (مقتل صبي):
الموت في الميدان طن
العجلات صفرت، توقفت، قالوا: ابن من ؟
ولم يجب أحد
فليس يعرف اسمه سواه
ولم يجب أحد
فالناس في المدائن الكبرى عدد
جاء ولد
مات ولد

ومن الواضح أن الشاعرين يرميان عن قوس واحدة في الحنين
إلى الريف والتفرز من المدينة على اختلاف في المدرسة الشعرية،
هذا يلتزم العمود وذاك يتحرر منه، هذا يسكب تجربته في قصيدة
وذاك يسطرها في ديوان.

والغريب أن يفوت على الاستاذ رجاء النقاش دلالة الرمز
والحنين إلى الريف، فيظنها دعوة مباشرة إلى الريف كما هو في
الواقع تماماً، لا عودة إلى الفطرة الانسانية الصحيحة منطلق
الحضارة الاول الذي انحرفت عنه الحضارة الغربية.. فيقول:
«ولقد يكون هذا الانسجام الموجود في حياة الريف انسجاماً سليماً
معتمداً على عناصر من الوهم والخرافة وبطء الحياة، ولكنه على
أي حال يمثل شيئاً بالنسبة لشاعرنا.. شيئاً يفتقده..» والاغرب

من ذلك أن يتذكر الناقد ما يقابل هذه الظاهرة عندنا في أوروبا والغرب، ثم يغالط ويضع العرب أمام الحصان — كما يقال — فينسف الظاهرة من أساسها التي ستنسف الحضارة الغربية التي هو حريص عليها — كما يبدو — فيقول: «والحنين إلى الريف هو شعور شائع لدى الفنانين الذين يعبرون عن القلق والضيق بالحضارة العصرية، فالشاعر الانجليزي الامريكي العالمي (ت. س. اليوت) يعبر في شعره كثيراً عن الحنين إلى العالم الزراعي، بل والحنين إلى عالم العصور الوسطى حيث لا صناعة ولا ضجيج ولا (رجال خوف).. بل انسجام وهدوء وطبيعة انسانية متصلة بالمظاهر الكونية المختلفة..» أما نحن فنفهم من مدرسة (ت. س. اليوت) اتجاهاً لكشف زيف الحضارة الغربية ودعوة إلى حضارة جديدة ليست حضارة العصور الوسطى المظلمة في الغرب، بل العصور الوسطى المشرقة في الشرق.. وهي ليست تلك العصور بالذات بل القيم والمثل العليا التي سادت فيها.

صُورَةُ أُدُبِيَّة

مِنْ صُورِ الْمَعْرَكَةِ الْحَضَارِيَّةِ

«٢»

في مقال سابق عرضنا قصيدة «راهب الحقل» للشاعر محمود غنيم، ولاحظنا أنها صورة أدبية معبرة للمعركة الحضارية التي تدور رحاها في مجتمعا العربي والإسلامي: صورة الريف، ريفنا بما يزخر من جمال وهندوء وإيمان وجد وحب وقوة وقناعة، تقابلها صورة المدينة التي تمت إلى الغرب بأكثر من سبب لما يضطرب فيها من تكلف وضجيج وشك وهو وغيبة وخمول وجشع، وهي لا تأنف عن أن تلقي ظلالها السود على الريف بين حين وآخر فتتغص عيشه الوادع.

أما في هذا المقال فسوف نتأمل صورة أخرى تنطوي على وجه آخر من وجوه هذه المعركة الحضارية وتمثل (الواقع في حياة المدن الكبرى حين يدخل غمارها الشاب قادماً من البلدة الصغيرة أو القرية البسيطة.. هذه الحياة الصاخبة تخلب ذلك الشاب بزخرفها وفنون لهُوها، واللوان عبثها، تجتذبه فيرتقي بين أحضانها. ويلقي

بقياده اليها فتذهب به في مزالق الضلال كل مذهب. ثم تسفر هذه الحياة عن وجه كالح، وتنقشع نشوتها عن صحو مضى اوانه... فاذا هنالك افلاس في أحد ثلاثة: في المال، أو الصحة، أو المستقبل. وكثيراً ما أعلن الافلاس في الثلاثة جميعاً، وهنالك الفاجعة الأبدية^(١).

هذا ما سطره الشاعر المرحوم ابراهيم طوقان، وهو يقدم لقصيدته «مصرع بلبل» ثم يتابع فيقول: (اما البلبل في هذه الحكاية فرمز الشاب المخدوع، واما الوردة فرمز بائعة اللهو والعبث، واما الروض فهو رمز الحانة أو الملهى). وقد تكون هذه الحكاية الرمزية اوضح اذا تذكرنا انها نظمت إبان الصراع العارم بين عرب فلسطين من جهة وبين اليهود والانكليز قبل النكبة من جهة ثانية. ايام كان الصراع في جوهره حضارياً. يتسم بالسرعة والعنف: فالعرب ريفيون اميون، عزل سذج، واليهود والانكليز مستعمرون متسلحون بأسلحة المدنية الحديثة من قوة وعلم ومكر ودعارة ولصوصية. فلنسمع طرفاً من قصة البلبل والوردة، ولنقرأ خطوط النكبة التي تنبأ بها الشاعر قبل ان تقع. ان البلبل في الروض الجديد يستشعر الغربة فيقلق ويحزن:

ومضى البلبل الغريب يطوف
الروض حتى انزوى عيا النهار

(١) ديوان ابراهيم — الطبعة الاولى — ص: ١٨٠.

راح يأوي إلى الغصون ولكن
كيف يغفو مشرّد الافكارِ
ولكن الروض داني القطوف، غني بالثمار والازهار:
كان في الروض فوق ما يتمنى
من فنون الاثمار والازهار
وهو كذلك ينذر بالحتوف. خال من الطير الا بقايا اعشاش
ومناقير:

غير ان ليس فيه طير يغني
اي روض يحلو بلا اطيّار
وسرت فيه رعدة حين لم يلق
سوى دارس من الاوكار
وبقايا نواقف رخم الموت
عليها، مخضب الأظفار
أي خطب اصابكم معشر الطير؟
وماذا في الروض من اسرار؟
تري إلى متى يستوحش البلبل وله من تغريده ما يسليه، وفي
الدوح ما يغريه:

نسي الطير همه حين غنى
قلما يستقرهم الطروب
ألف الروض مفرداً وتولى
عنه في دوحه شعور الغريب

ليبحث عن رفيق، ولو كان وردة تحمينا اشواكها الجارحة:

واذا (وردة) تفيض جمالاً

تهادى مع النسيم اللعوبِ

قد حمها اشواكها مشرعات

حولها دون عابث او غضوب

انها جميلة وفيها من الاغراء ما فيها:

تمنح العين حين تبدو. وتخفي

من ضروب الاغراء كل عجيب

وانها لجديرة بان تحب وتطلب، وبان يسهر البلبل في هواها

ويتعب، وبان يقبل عليها مغرداً متودداً وان اعرضت عنه:

صارت الوردة الخليفة للبلبل

هما ومأربا يُشقيه

حسرتا للغرير، اصبح كربا

ما يلاقيه من دلال وتيه

شقّه السهْدُ واعتراه من

الحب سقام مبرح يضنيه

من رآها، وقد تحامل يهفو

نحوها، كيف اعرضت تغريه

من رأى روحه تسيل نشيدا

لاهباً، لوعةً الاسى تذكّيه

اما آن للوردة ان تجود بوصال البلبل المقيم :
من ترى علم البخيلة حتى
سمحت ان يقبل الطير فاها
لم يصدق عينيه حتى اطلت
واطالت في ختله نجواها
لقد تكرمت، ولكن ما وراء جود البخيل. واغراء اللعوب.
وعناق المسربل بالشوك ؟:
ضمها الطير مطبقاً بجناحيه. وهمت بشغره شفتاها
لم يمتع بنشوة الحب حتى
اشرعت شوكة تلظى شباها
اوردتها قلباً اذا رف يوماً
خافقاً للهوى. فذاك هواها
كرعت في الدم البريء فلما
عكسته وهاجة وجنتاها
نظر الطير نظرة اعقبتها
روحه طيَّ شهقة معناها:
وردة تهر العيون ولكن
كثرة الشم قد اضاعت شذاها
يا للطعنة النجلاء تسدها الوردة الغادرة إلى القلب الذي
أخلص لها لتمدن دماء الفتية القانية، ولم تدافع عن البلبل

الشهيد أغاريده ولا براءته ولا اخلاصه، فقد غض طرفه عن
أعشاش اترابه الطيور وعن الأشلاء والمناقير المبعثرة الدامية.

وكان هذا البلبل الغريب لم يتصل خبره باخ له، فتى وسيم
جسيم، شريد طريد روى لنا الشاعر الاخطل الصغير حكايته في
قصيدة «المسلول»^(١) ووصف ما كان له من شأن مع هذه الوردة
الحسنة التي تصطاد الفتيان وتحسن اختيارهم، ثم ترديهم واحداً
واحداً:

حسناء اي فتى ترد تصد
قتلى الهوى فيها بلا عدد
بصرت به، رث الثياب بلا
مأوى، بلا اهل، بلا بلد
فتخيره وكان شافعه
لطف الغزال، وقوة الاسد
وها هو يظنها صيداً ثميناً، وراءه المال والجمال واللذات
والامان بعد الظمأ والحرمان:

ورأى الفتى الآمال باسمه
في وجهها لفؤاده الكد
والمال ملء يديه. ينفقه
مشفياً، انفاق ذي حرد..

(١) شعر الاخطل الصغير— طبعة (١٩٦١) — ص: ١٢٤.

ظمآن، والأهواء جارية
 كالسلسيل، متى يُرد يَرد
 روض من اللذات طيبة
 اثمارة، خلو من الرصد
 ماضيه لو يدري بحاضره
 — رغم الاخوة — مات من حسد
 ثم تمضي سنة، ويمضي معها الشباب المعهود وذلك الوجه
 الصبيح:
 سنة مضت، فاذا خرجت إلى
 ذاك الطريق بظاهر البلد
 ولففت وجهك يمينه، فتري
 وجهاً متى تذكره ترتعد
 لماذا؟ ومن هذا الرجل الهزيل المتلجلج الالفاظ المهور
 الانفاس، وقد جعدت الخمرة خديه وقرح السهر جفنيه، فأصبحت
 عيناه الغائرتان كسراج في كوخ وقد باخ ضوؤه، وما هذه الاصابع
 المضطربة كأوراق الشجر الخزيني اذا نقرتها حبات البرد. لماذا
 يتمهل في سيره كأنه يمشي على الشوك؟ يا لطيف!! انه يدلق
 الدماء من فيه بين حين وآخر، فعلى منديله منها قطع اشبه بالكبد
 المتفطرة، وبديجات الرثاء، تنذره بموت عاجل، وما له من معين
 ولا طبيب:
 هذا الفتى في الامس.. صار إلى
 رجل هزيل الجسم مُنجرد

متلجلج الالفاظ مضطرب
متواصل الانفاس مطرد
متجعد الخدين من سرف
متكسر الجفنين من سهد
عيناه عالقتان في نفق
كسراج كوخ نصف متقد
تهتز أمله فتحسبها
ورق الخريف اصيب بالبرد
يمشي بعملته على مهل
فكأنه يمشي على قصد
ويمج أحياناً دماً فعلى
منديله قطع من الكبد
قطع تآبين مفعجة
مكتوبة بدم يغيريد
قطع تقول له: تموت غداً
واذا ترق تقول بعد غد
متوحد، اما الحبيب فذ
خاف انتقال الداء، لم يعد
لا راحة لهذا الفتى المسكين الا بالموت، فليمت وليدفن منفرداً
مستوحشاً، ولتكتب على ضريحه العاري عظة تكون عبرة لمن يعتبر:
هذا قتيل امرأة فاجرة غادرة:
مات الفتى فأقيم في جدث
مستوحش الارزاء منفرد

متجلىل بالفقر، مؤتزر
 بالنبت من متيس وندي
 وتزوره حيناً فتؤنسه
 (١) بعض الطيور بصوتها الغرد
 كتبوا على حجراته بدم
 (١) سطرأ به عظة لذي رشد
 هذا قتيل هوى ببنت هوى
 (١) فاذا مررت باختها فجيد

ويمر الشاعر عمر ابو ريشة بأختها «شقية» (٢) مرور من قرأ
 السطر الدامي على ضريح المسلول، فتثير فيه الاعجاب
 والاستغراب، فيود لو يستنطقها ويعرف سرها المكنون منها وحدها
 والدوافع التي دفعتها، والسبيل التي سلكتها، والى أين ستنتهي بها
 وبالناس.. ها هي تعلن له: انها كانت في الاصل طاهرة الذيل:
 طلعت على الايام والطهر حارسي
 يحوك على عطفي جلبابه القدسي
 ولكن الغرور اصمها عن هتاف العاشقين المخلصين واطراء
 المعجبين المتوددين:

(١) هذه الابيات الثلاثة محذوفة من ديوان الشاعر الجديد (شعر الاخطل الصغير)
 وقد رويناها عن ديوانه «الهوى والشباب» .
 (٢) من عمر أبي ريشة — شعر — طبعة (١٩٤٧) — ص: ١٨٧ .

وضج باعطاني الغرور فلم الن
لصرخة ولهان تمخض باليأس
كنرجسة في الحقل تلثم ساقها
تغور من الازهار طيبة الغرس
وليس أقتل للغرور من الكبرياء والانانية اذا اجتمع بها:
ولكنها والكبرياء تهزها
ابت ان ترى في غيرها رفعة الجنس
حنت رأسها كما تقبل ظلها
غروراً فانت وهي محنية الرأس
فلتذق طعم الاحوال ولتجرب حظها في امواج الدم وبحر
الشقاء:

وضاقت بي الدنيا فهمت طريده
افتش عن سعدي فيلطمني نحسي
فلا لاح لي الا دم متلاطم
ففي لجة اغدو، وفي لجة أمس
أرى عنده للشأر من فتكة الورى
مناهل تنسي ما اجرع من بأس

إذن قد انتهت إلى الانتقام الظالم، إلى التشفي بضحاياها من
الفتيان الابرياء. إلى نفث السم النافع، والوباء الفاتك، كي
تموت مرتاحة النفس!

فرب فتى ما دنس الخزي قلبه
 نصبت له سهم الاساءة في القوس
 تمطّيت لاستغوائه فتشاءبت
 بعيني افواه الدعارة والرجس
 اذا أنّ هزت رعشة الانس اضلعي
 وافرحني ان لاح في صفرة الوردس..
 فصرت اذا ما اشتد دائي تركته
 ليعدي، وان ابصرت من خلفه رمسي
 كما النحلة الغضبي لدى وخز خصمها
 تموت.. ولكن وهي مرتاحة النفس
 'لا عجب في ذلك، لا عجب في أن يهوي البلبل الغريب
 سريعاً، وان يموت الشريد الشديد مسلولاً وان يسقط كل من
 تغويه الشقية شهيداً. إنها سنة ثابتة، ومأساة واحدة، قد تتعدد
 الاسماء، وتتنوع الصفات وتختلف الامكنة والازمنة، وتبقى النتيجة
 هي هي. بلبل ريفي جميل شاب بريء ساذج تصطاده وردة
 حضرية، ظاهرها يغري. ومخبرها يردي، خليعة محنكة مصاصة
 للدماء. لا فرق بين أن يكون المصيد ضعيفاً أو عنيفاً، غنياً أو
 فقيراً، وأراداً أو صادراً ولا فرق بين أن تكون المصطادة طاهرة في
 الأصل أو مدنسة، مضطرة أو عامدة، عادية أو سادية، صحيحة أو
 مسلولة. وهكذا يزحف الريف إلى المدينة شيئاً فشيئاً ويزدوب
 فيها، فإذا أبطأ توجهت إليه بنفسها وابتلعتة.
 أما لهذا الليل من آخر، أما لهذه الموجة العاتية من صخرة

تتصدى لها، من طود شامخ تركع له؟!
 بلى ما دام فتيان الريف قد تساقطوا شهيداً في اثر شهيد، فإن
 ابن المدينة لقادر على أن يثار لهم. فيؤدب الجانية. ها هو الشاعر
 نزار قباني، يتحداها قائلاً «لن تطفئي مجدي»^(١).

ثرثرتِ جداً.. فاتركيني
 شيء يمزق لي جحبيني

لقد وعى المأساة، وعرف الثمن الباهظ الذي سيكلفه، فليئنه
 هذه القصة المشتومة:

لا تسأليني كيف قصت سنا انتهت، لا تسأليني
 هي قصة الاعصاب. و الأفيون، والدم والجنون

وليترك الآثمة تحترق بنارها التي أوقدتها لحرقة:

حاولت حرقني فاحترقت بنار نفسك فاعذريني

وليتركها لأنانيتها التي حالت دون انطلاقه إلى العلا:

ورأيتني — اهب النجوم محبتي فوقفتِ دوني
 كم بذل لها من روحه ومن اخلاصه وفنه وعطفه لتسموعه،
 فما زادت الا ان سخرت منه، وتعلقت بالارض:

حاولتُ ان أعطيك من نفسي ومن نور اليقين

(١) قصائد (نزار القباني) — طبعة ١٩٥٨ — ص: ١٣٥.

فسخرت من جهدي ومن ضربات مطرقتي الحنون
وبقيت رغم انامي طيناً تراكم فوق طين
فليمحها من ذاكرته وليربأ بنفسه ان يسجد لها ثانية:

لا كنت شيئاً في حسا ب الذكريات، ولن تكوني
شفتي سأبترها.. ولن أمشي اليك على جبيني

حقاً لقد انتصر عليها نزار قباني وتجاوزها، لكنه لم يتجاوزها
إلى الافق الرحيب إلى طاهرات الذيل، إلى ملائكة الارض، بل
إلى «اوعية الصديد» و «إلى ميتة» إلى «حبلى» وإلى ذات
«الجورب المقطوع» وإلى «اجيرة» وإلى «وجودية»^(١) فكان
كأبي نواس الذي تداوي بالتي كانت هي الداء.

وكان كالحضارة الغربية التي مالت شمسها للغروب اذ
تداوى من الخمرة والجنس والجشع والتمييز العنصري والعنف
والآلية بمزيد من الخمرة والجنس والجشع والتمييز العنصري
والاستعمار والتصنيع..

فهل نقول: على الريف، على المدينة، على الدنيا السلام؟؟

كلا: ان الكنانة لم تخل. وان العرين لم يخو. وان شهداء
الدرب من بلابل وشبان وفتيان، اولئك الذين خضبوا الدرب
بدمائهم للسالكين، كانوا ضريبة لا بد منها لكل من يخوض
معركة، وكانوا جسراً إلى الوعي، إلى التماس الحطة الناجعة.

(١) عناوين قصائده في ديوانه المذكور (قصائد).

فالبلبل الصريع، كان إلى اخلاصه وجماله يعوزه الذكاء والخبرة
والارادة، والفتى المسلول كان إلى لطفه وقوته تعوزه الاخلاق
والنظر البعيد، وعشاق الشقية كانوا كالفراش الذي يخطب ود
النار، اين منهم رجل متمرس ابي جواب ثائر، يخوض الغمرات.
ويصارع المغريات. حتى اذا بعد المزار، واستعر الاوار، وقف
صامداً مجاهداً، ورفع راسه إلى السماء شاكياً وراجياً يلتمس الجبل
المتين والمدد الذي لا ينفد.

كيف انجويأ خالقي من شباب
(١) عارم، عاصف التوثب ضاري
مستبد بكل ذرات جسمي
مستفز كوامن الاوطار
كلما رمْتُ كبته، ثار جهلاً
وتخطى عقلي وأعيا قراري
انه يعاني من أزمة البلبل الغريب نفسها: شباب ورغاب ازاء
الاغراء الملح، والعصر الطافح بالاحاييل المطبقة المزهقة، حتى
استعصت عليه النفس المطواع، وبات قشة على وجه السيل:
ولو اني كفيت اغراء عصري
وأحابيل خلقه الاشرار
وحبيت اختيار وجهة امري
لتساميت واستقر قراري

(١) ديوان (مع الله) لعمر بهاء الاميري — طبعة الأصل (١٩٥٩) — ص: ١٩.

ولكانت نفسي الشرود تزكت
غير اني كالعود في التيار
ولكنه يتماسك، ويطرق باب النجاة متورعاً متضرعاً، سائلاً
آملًا:

كيف انجويَا خالقي كيف انجو
والمقادير ألزمتني إساري؟
فتخير لمن خلقت سبيلا
ترتضيها، فان ذاك اختياري
لا تُفرطِ بمن دعتك خلاياه
.. دراكاً، في ليله والنهار
طوى له، لقد عرف نفسه، وعرف دربه، وعرف ربه،
فحققت له النجاة:

رب سار والسحب قد لُفَّتِ النجم
فحار السارون عبر القفار
سفر النجم فاستبان خطاه
فرآها اهتدت بلا إبصار
لقد امسك الشاعر عمر بهاء الاميري في قصيدته هذه «ضراعة
ثائر» بخيط من خيوط النصر بل بالعروة الوثقى لا انفصام لها،
ذلك لانه لم يصارع التيار بجماله وبراءته ونبله، بل اضاف إلى
ذلك الخبرة والوعي والصبر والارادة ودعمها جميعاً بالايان الراسخ
فدان له الفوز.

ولعلنا نلاحظ اخيراً ان ابن ريفنا وهو رمز ما آل الينا من
 ارثنا الحضاري، لا يستطيع منفرداً ومجتمعاً ان يتصدى لتيار
 الحضارة الوافد المشوب، لان فطرته وما يلوذ بها من طيب وطهر
 وصحة وعطاء لا تحميه فضلاً عن ان تبني له حضارة جديدة، فهو
 إلى ذلك ينطوي على موروثات اجتماعية وعادات بالية هي حرب
 عليه وعون للازياء والمغريات والشباك المنصوبة له في كل حانة
 وعلى كل شفة وخلف كل رداء. وهذا ما شهدناه في حكاية
 البلبل والمسلول والشفقة، اما في ضراعة ثائر فقد انفجرت الازمة
 بلجوء صادق إلى الله تعالى، واذا كانت ازمة الجنس وهي اكبر
 ازيمات الحضارة العصرية واطورها، قد عولجت بالايمان، فان
 الحضارة عباب زاخر بالسم والدسم، بالبناء والهدم، بالدعارة
 والعلم.. مما يقتضيها ان نلبس لكل حال لبوسها، وان نسلخ
 مجتمعاتنا بأسلحة الخبرة واليقظة والحذر والاختيار والايمان إلى
 جانب ما عندها من فتوة واخلاص وتضحية وفطرة.

سِلْسِلَةُ وِلْسُونِ الْحَضَارِيَّةِ *

تعريف — عرض — مناقشة

— ١ —

كولن ولسون كاتب شاب يدخل الأدب والفكر المعاصرين من باب عريض وهو لا يدعي ذلك. وتثور حوله المارك النقدية مشجعة ومثبطة، وتتلففه الصحافة والإذاعة والتلفزيون وهو ذاهل، بعد أن صدر كتابه الأول «اللامنتمي» وطبع عشر طبعات خلال أربعة أشهر ورغم أن كتبه الثلاثة مرآة لحياته وتجاربه الخاصة — كما يعلن — فقد سطر فصلاً واعياً عن تاريخه الشخصي، وافتتحه من يقطته الفكرية المبكرة بعد مطالعة مجملة اضافية عن (أينشتاين) صاحب النظرية في النسبية، فوصف انصرافه الغريب إلى المطالعة والبحث والمناقشة والحياة الجدية الدائبة، على حساب رزقه وراحته وصحته وتفوقه المدرسي. لقد كان يتأرجح في سلم الحياة العملية بين ضابط في سلاح الطيران وعامل في تعبيد الطرق والأزقة، بين موظف

(٥) (اللامنتمي) (سقوط الحضارة) (طقوس في الظلام) نشر دار العلم للملايين — بيروت.

محترم في شركة كبيرة وعامل للغسيل والتنظيف. لكنه كان دائماً ذلك المفكر الذكي القلق الباحث عن الحقيقة عن الهدف عن السعادة النفسية العالية. وكان إلى جانب ذلك كثير القراءة مولعاً بالمطالعة الواسعة الموسوعية، وقد قام فعلاً، وهوفتي، بتسويد ستة دفاتر تلخص جميع المعارف الإنسانية. كما كان كثير التمزيق لما يكتب. وقد رزق بصيرة ثاقبة وذاكرة قوية وملكة على المقارنة والربط فائقة. فضلاً عن الصراحة والجرأة والصدق.

— ٢ —

وكتابه الأول «اللامنتمي» أصدق شاهد على ذلك: «واستطعت ذات صباح أن أضع خطة كتاب ما خلال نصف ساعة، وكنت مزعماً أن أسميه (اللامنتمي في الأدب)، وأردته أن يكون بحثاً لمختلف أنواع القلق الإنساني. وأعددت قائمة بأنواع الناس الذين كنت أميل إلى بحثهم. واهتديت في الحال إلى بعضهم... وكان هنالك طبعاً عدد كبير من مختلف أنواع اللامنتمين، كان هنالك بعض العاملين بينهم، وكان هنالك أيضاً سلبيون تماماً. وكان في وسعي أيضاً أن أخصص جانباً من الكتاب للشخصيات الدينية، التي كانت جميعها عاصية ضد التقاليد الشائعة، وهكذا يتشعب اللامنتمي إلى ناحيتين، ناحية الضعف، وناحية العصيان. ثم أعقب بالوجوديين الفرنسيين — وكان ذلك كله يشير إلى وجود صلة بنيته، في حين أن دراسة التشاؤم تربط الموضوع بشوبنهاور وشبنغلر». (سقوط الحضارة ص ٤٩). «لقد

كان «اللامنتمي» محاولة لبحث مسألة (أن الإنسان ليس كاملاً بدون دين)». ص ٣٩٥.

والمؤلف نفسه يوفر علينا عرض كتابه الثاني «سقوط الحضارة» والخطبة التي سار عليها فيقول: «لقيت في تأليفه عناء أشد من العناء الذي لقيته في تأليني «اللامنتمي»، لان موضوع هذا الكتاب أشد تعقيداً. ففي الفصل الاول: حاولت أن أحدد مظاهر اللامنتمي بشكل مركز، وأن أبين ما أعنيه بالوجودية وكيف أن مفهومي لها يشتمل على أمور أوسع من تلك التي تفهمها (كيركغارد) أو (هايديغر) أو (سارتر)، ان وجوديتي هي أقرب إلى فكرة (غوتيه) في «الثقافة التربوية». وقد حاولت أن أركز على هذا بدعمي بتحليل لـ (ريلكه ورامبو وسكوت فنزجرالد)، وخاصة الاخير لانه يمثل انسان القرن العشرين أصدق تمثيل. ولا تتضح فكرة الكتاب الاساسية الا في الفصل الثاني: تدهور الحضارة الغربية. ولهذا فان هذا الفصل مخصص لبحث (شبنغلر وتوينبي). ويعود القسم الثاني من الكتاب إلى بحث مشكلة اللامنتمي ومحاولته لكي يكون منتمياً بقبول الحل الديني، وقد بحثت في هذا القسم (بوهمه وسويدنبرغ وباسكال وفيرار ولو ونيومان وكيركغارد وبرناردشو) ودرست حلولهم، وقد وضعت (شو) في قائمة اللامنتمين الدينيين عمداً لكي أبين أنه لا يمثل ظاهرة وحيدة — كما يعتقد نقاد العصر الحديث — ولكي أوضح علاقته بغيره من المفكرين الذين وقفوا ضد المادية منذ القرن السادس عشر. أما الفصل الاخير، فان اتجاهاً البحث: الاتجاه

الديني والاتجاه التاريخي، يتقاربان لبحث أفكار فيلسوفين كبيرين من فلاسفة القرن العشرين هما (فتكنشتاين) و (ألفرد نورث وايت هيد) والتناقض الكامن في أن الأول كان لا منتمياً في حياته دون أن يكون كذلك في فلسفته، في حين أن الثاني عاش حياة انتمائية واستطاع أن يبدع أول فلسفة لا انتمائية انكليزية. ولا يمكن أن يكون هذا الكتاب أيضاً حلاً نهائياً للمشاكل التي تشغلي — وكيف يكون ذلك؟ بل انه ليس غير شروع في اتجاه جديد يضاعف المشاكل التي استعرضتها في «اللامنتمي». أما الاستنتاجات التي ينتهي اليها الكتاب فانها متشائمة بقدر ما للامر من علاقة بالحضارة الغربية». ص ٥٥. ويقول في موضع آخر: «هذا الكتاب يسير في اتجاهين في وقت واحد: يتغلغل عميقاً في اللامنتمي نفسه وفي الوقت نفسه يبحث في التاريخ عن مشكلة تدهور الحضارات. ويقود الطريق الاول إلى الداخل، إلى التصوف، وأما الثاني فانه يقود إلى الخارج، إلى السياسة» ص ٦.

أما الكتاب الثالث «طقوس في الظلام» فهو قصة طويلة أو رواية في المصطلح الفني. ومن أبرز خصائص هذه الرواية أنها تجسيد حي للأفكار الفلسفية التي تعرض لها المؤلف في كتابيه السابقين وانتهى اليها.

وتدور أحداث هذه الرواية حول شخصيتين هامتين: الاولى شخصية (سورم جيرارد) الذي يتقمص أفكار المؤلف وعواطفه

وتساؤلاته الفلسفية وحبّه للبطالة في سبيل المطالعة والكتابة والبحث والتأمل ومطاردة الرؤى الذهنية والوصول إلى تفسير صحيح للوجود وللحياة. أما الشخصية الثانية فهي شخصية (أوستن نن) الذي يعطينا صورة غريبة لشاب ثري مترف، له اصدقاء كثيرون ورحلات عديدة ومغامرات غامضة ونفقات همة. والحق أن الشخصية الثانية قد استهلكت أكثر أحداث الرواية، وأن شخصيات الرواية جميعها إنما كانت تدور حولها وتتصل بها بسبب أو بآخر، كالعمة (جيرترود) المربية و(الاب كاراثرز) المرشد و(غلاسب) الصديق الفنان.

أوستن نن هذا كان يرمز في الرواية إلى الحضارة الغربية المادية المترفة التي تنفق وتبذر بلا حساب، والتي تحير الناس بمظاهرها وأساليبها وسلوكها وألوانها، وتخدع الاذكياء فضلاً عن السذج والعامة. لقد ظل (سورم جيرارد) المؤلف مخدوعاً بالصديق الطارئ (أوستن نن) حتى اللحظات الاخيرة من الرواية، كان يحس بجاذبية اليه، كان يحتاج اليه كان يراه موضوعاً للتجربة والتأمل والدراسة، كما كان يعاني على يديه شيئاً من التعب والاشمئزاز والرعب أحياناً، لكن سورم صبر عليه بدافع العطف، بدافع حسن النية، بدافع الحاجة وأخيراً بدافع الحيرة من أمره: هل يعقل أن يكون اوستن شاذاً جنسياً وإذا كان كذلك هل يعقل أن يكون شذوذه سادياً، وإذا كان كذلك هل يعقل أن يكون المجرم الذي يقتل النساء خنقاً أو بقرأ أو ذبحاً بين حين وآخر في أشهر ساحات (لندن) لا لشيء الا للعبث أو التشفي أو للزهو أو التحدي، وإذا كان كذلك هل ندين اوستن؟؟؟.

- ٣ -

هذه الكتب الثلاثة على جانب خطير من الاهمية لما انطوت عليه من أفكار فلسفية، ولما سارت عليه من أساليب في الاداء والتعبير والاخراج، ولما انتهت اليه من نتائج.

ان الخيط الفكري الذي ينتظم الكتب الثلاثة: هو البحث عن معنى الحياة عن الهدف، وعن هذا الخيط الاصيل تتشقق المسائل الاخرى. والحق أن معنى الحياة (من أين جئت؟ ولم جئت؟ وإلى أين أنتهي؟) هو المحور الرئيسي الذي دارت حوله فلسفات الانسان وعقائده وتصوراته منذ خلق إلى اليوم وستبقى كذلك إلى الابد. أما المؤلف فقد قرع الابواب كافة، ومحص الحلول المطروحة جميعاً. بدأ من نفسه بالتأمل والتركيز الذهني والمطالعة والمعايشة للواقع، ثم استشار التاريخ والفكر الانساني المعاصر والموروث والاديان. لقد كان قلقه الفكري مرعباً، وشوقه إلى اليقين أو الاطمئنان الروحي هائلاً، لكنه عرف بعد جهد مضمّن استنفد فتوته وشبابه أن له أمثالاً في القديم والحديث، الا انهم قلة لا سيما في هذا العصر المظلم. وعرف أنهم عصاة على الغالب، كالانبياء والمصلحين الاجتماعيين، لذا أطلق صفة «اللامنتمي» على كل منهم. فالمجتمعات تتألف من عصابة اللامنتمين، ومن قطيع هائل من المنتمين الذين هم كالانعام أو أضل سبيلاً. ونسبة اللامنتمين إلى المنتمين إلى بقية المجتمع في العدد والهيمنة والتأثير هي التي تقرر مصير هذا المجتمع وحضارته ومستقبله. وكلما اتسعت الهوة واحتدم العداء بينها آذن الفناء هذا المجتمع المزدوج بالزوال. ليست هذه

العدواة طبقية بين فقير واقطاعي، بل ليست عداوة في الاصل، انها سوء فهم الفريق المنتمي للفريق الآخر، للمُثل الحضارية للخطر الروحية والحيوية التي تهدد المجتمع. انها تحريك للبصائر الانسانية ولا تحريك: اي انها الحدود الفاصلة بين الانسانية والحيوانية. الانسان ليس حيواناً مقلداً، ولا آلة عديمة الاحساس، ولا جماداً لا هادفاً. الانسان انسان، انسان بتوقه إلى المعرفة، وبأشواقه الروحية، بتوسيعه لادراكه وخياله، بتحقيقه لذاته ووجوده وهويته، بتحكمه في مصيره ومستقبله هو على الاقل.

على هذا المستوى يجري قلم كولن ولسون، وعلى هذا الصعيد يشرح الحضارات الانسانية والحضارة الاوربية المعاصرة على الاخص: «وقد سهل علي أن أقرر لنفسي بعد ذلك أن معظم البشر يعيشون حياة كثيبة من الدرجة الثانية، لانهم لا يعرفون مفهوم النظام الروحي والذهني» ص ٣٥. «انني لمقتنع بأن الناس يموتون (وهم أحياء) لانهم يكفون عن الرغبة في الحياة. ترى أي هدف هنالك في العيش حين لا يكون هنالك أي تحد أو أي دافع. وحين يقوم القائد الاوتوماتيكي بأداء كل شيء». ص ٤٢. «ان نتيجة القاء أهمية عظمية على العقل هي الفوضى والنصفية. ان هذه الفوضى هي السبب الرئيسي في سقوط حضارتنا». ص ٣٨٤.

وبالتلخيص نقول: ان سلسلة المؤلف تتم عن تطواف فكري واسع غني بالتجارب والانفعالات والنتائج والحلول. لقد أدرك

أخيراً بتجربته الخاصة و بدراسة التاريخ والاديان والفلسفات المختلفة أن الحل الديني الصافي هو الحل الصحيح. كما أدرك أن الشواثب التي طرأت على المسيحية هي التي حطمت الحضارة: «كنت أفهم الحاجة إلى الله والحاجة إلى الدين، بل انني كنت أعطف على الذين كرسوا أنفسهم مثل (سوسو) أو القديس (فرنس) للذين نسجوا مختلف الاوهام حول الصليب والمسامير وبقية الرموز التقليدية، الا أنني لم أستطع أن أقنع نفسي بجائتي إلى مخلص لينقذني». ص ٣٥. «ويبدأ اللامنتمي عادة بأن يكون رومانسياً غير مؤمن بأي دين، وينتهي إلى الايمان بمعتقدات دينية كلاسيكية — حديثة» ص ١٦٥. «ولا يمكن الادعاء بأن هذا هو ما تبشر به المسيحية وحدها، لانه كان هدف كل نبي عظيم ومعلم ديني منذ بدأ العالم». ص ١٧٦. «أجل لقد كان بولس مختلفاً جداً عن المسيح، كما أن الدين الذي اخترعه بولس وسماه المسيحية لم تكن له علاقة بتعاليم المؤسس». ص ١٧٩. «ولهذا السبب نجد برناردشو يسميها الصليبية بدلاً من المسيحية». ص ١٨٣. «وهكذا صار اللامنتمي عاصياً وبدأ الاصلاح». ص ١٨٥.

أما مذهب المؤلف الفني في الكتابة فهو الالتزام، المذهب الذي لا يفصل الادب عن الحياة: «وبالرغم من أنني كنت استخدم الكتابة لتصفية ذهني، فاني لم أعتبر نفسي كاتباً قط. الكتابة هي وسيلتي إلى الهدف الذي أنشده وحسب». ص ٥٢. «ان مجرد تفكيري في انفاق حياتي من أجل أن تخصص لي بعض

الصفحات (في تاريخ كمبردج للادب الانكليزي.. يلوح لي أشد أنواع الرتابة كآبة». ص ٥٣. ثم ان تحليل المؤلف لمئات الآثار الادبية والاجنبية الجيدة يقدم لنا برهاناً جديداً على أن الادب الخالد يجب أن يكون ذا هدف. ذا قيمة ثابتة، ذا صدق ذاتي.

وأخيراً هل تنبأ المؤلف بشيء عن حضارة الاسلام الجديدة: «ولما كان العالم قد أصبح الآن مكاناً صغيراً تتشابك فيه الحضارات، فانه لمن الصعب نكران أن هذه التشاؤمية تحيط بالبشر قاطبة، لان هذا أمر يحتمه المنطق. الا أنه ما يزال لدي شيء من التفاؤل لم تقض عليه بعد هذه الافكار، رغم أنني لا أعرف السر في ذلك». !!

بابُ الغرِيفِ والنقْدِ

مراجعة لكتاب

الاسلام والغرب والمستقبل

مؤلف الكتاب أرنولد جوزيف توينبي (١٨٨٩-١٩٧٠م)، مؤرخ انكليزي عمل في وزارة الخارجية البريطانية وفي تدريس اللغة والتاريخ الاغريقين، وبحث في الشؤون الدولية. بلغ قمة الشهرة بكتابه (دراسة في التاريخ)، وهو بحث لنمو الحضارات وتطورها وانحلالها من خلال ما أسماه «التحدي والاستجابة»، مهتماً بدور النخبة الثقافية والخلقية. زار مصر ثلاث مرات (١٩٦١ و ١٩٦٤ و ١٩٦٩) وألقى عدداً من المحاضرات. كما تُرجم الكثير من مؤلفاته إلى العربية ^(١) واعتبر لدى المشتغلين في

(١) من كتب توينبي المترجمة إلى العربية : مختصر دراسة للتاريخ — الفكر التاريخي عند الاغريق من هومر إلى هيراكليس — فلسطين الجريحة ودفاع ارنولد توينبي — العالم والغرب — الحضارة في الميزان — محاضرات توينبي في الجمهورية العربية المتحدة (١٩٦١ و ١٩٦٤) — تاريخ الحضارة الهلينية — بين أمدادها وجنا — مع أرنولد توينبي — الوحدة العربية آتية.

ميدان الثقافة في طليعة المفكرين الغربيين الذين يناصرون القضايا العربية لا سيما قضية فلسطين والوحدة العربية.

أما كتابه — موضوع البحث — المترجم إلى العربية (الإسلام والغرب والمستقبل)، (فهو ترجمة محاضرتين ألقاهما في عامي ١٩٤٧ و ١٩٥٢) مع مقدمة لناشر الكتاب وتعليقات وحواش متفاوتة لمرجه الدكتور نبيل صبحي.

في المحاضرة الأولى (الإسلام والغرب) يلخص المؤلف بحثه منذ السطور الأولى، فيقول: «تحدثت سابقاً، عن نقطتين في لقاء روسيا مع الغرب: الأولى هي أن روسيا نجحت في الاحتفاظ بنفسها وهي تواجه الغرب، وذلك باقتباسها الأسلحة الغربية. والثانية هي أن الأسلحة الغربية المقتبسة.. كانت «عقيدة»، وأنه من خلال تطبيق هذه العقيدة الغربية الشيوعية تمكنت روسيا من الانتقال من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم المعاكس الذي يثير قلق الغرب اليوم. وقصة علاقات روسيا بمجتمعنا الغربي في عصرنا الذي نعيشه، هي في بعض ملامحها إعادة لقصة قديمة لعبت فيها الحضارة الاغريقية والرومانية دور الحضارة الغربية الحديثة، أما دور روسيا، فقد لعبه في ذلك الوقت، الإسلام». ص ١٥. ثم يسط المؤلف بعد ذلك مواجهة الإسلام للغرب على ضوء هاتين النقطتين منذ محاصرة العثمانيين فيينا للمرة الثانية (١٦٨٢- ١٦٨٣) حيث بداية تحول التيار لمصلحة الغرب، حتى إسقاط أتاتورك الخلافة وقيام دولة باكستان. لذلك كانت حركات (التغريب) في العالم الإسلامي — بمختلف درجاتها —

هي التي وقف عندها المؤلف، يدين جرعات التغريب الصغيرة، ويحبذ تغريب أتاتورك الحاسم، الذي تم على أيدي شبان الجيش الذين أتقنوا اللغات الأجنبية كما في روسيا.

أما في المحاضرة الثانية (الإسلام والغرب والمستقبل) فيلاحظ المؤلف في مواجهة المسلمين للغرب ظاهرة قديمة لدى اليهود لما واجهوا الحضارة الهلينية الرومانية وانقسموا إلى فريقين: فريق المتحمسين، الذي يتهرب من الشيء المجهول، ويلجأ إلى الشيء المتعارف عليه، كأن يلجأ إلى السلاح التقليدي أمام التكنيك والأسلحة الحديثة. سلوك هذا الفريق غريزي غير عقلائي، وموقعه الجغرافي غالباً ما يكون قاحلاً في الواحات أو الجبال، نائياً صعب الوصول إليه. وفريق المقلدين (يعمل على أساس أن أفضل طريقة لدرد خطر الشيء المجهول هو تعلّم أسرارهِ) بعد التخلي عن فنه التقليدي. سلوكه عقلائي، وموقعه الجغرافي (على مقربة من الأسواق العالمية الطبيعية الكبرى) قرب مضائق البحر الأسود وقناة السويس.

حركة كل من الفريقين ردة فعل — وإن كانت ردة المقلدين أقوى — لا تقدم أي حل للمشكلة، وصدامهما أضعف من فاعلية الفريقين.

وسوابق التاريخ — مثل ظهور المسيح عليه السلام — تنذر بظهور فريق ثالث يؤدي دوراً كبيراً للمسلمين ولبروليتاريا الحضارة الغربية الواسعة، وللبنشوية المنكوبة.

إن منهج المؤلف في محاضراته منسجم مع نظره في تفسير انحلال الحضارات وقيامها على ما أسماه «التحدي والاستجابة»، كما أن نتائجه — بشكل عام — منسجمة. وموضوعيته لا تتأني عن تجرده من العاطفة. بل من انسجامه مع منهجه للتحليل والتفسير والاستنتاج. فهو مثلاً يعترف بأوباء حضارة الغرب: كالتمييز العنصري ونشر الإدمان على المخدرات وترك المجتمعات البدائية التي داهمها في فراغ روحي، وكعدوى القومية التي أفساها في عصر يُحوّج إلى الأخوة الإنسانية، ثم نهب الثروات فضلاً عن تعذيب المتحمسين وقمعهم حيناً واجهوا أسلحة الغرب الفتاكة.

وقل مثل ذلك في إدانته جرائم (المقلدين) أمثال أتاتورك ومحمد علي، بحق إخوانهم (المتحمسين)، لكن المؤلف — بحكم عاطفته — يلتمس للمقلدين الأعذار.

إذا رحنا نلتمس المواطن التي كشف فيها المؤلف عن تحيزه العاطفي، فسوف نراها تتجلى بأشكال متباينة:

١ — العاطفة المباشرة: حين ينتهي إلى الحديث عن الفريق الثالث للمسلمين، وعن دور الإسلام في المستقبل... يحذّر من يقظة الخلافة الإسلامية (إن النائم قد يستيقظ)، ومن تزعم المسلمين لبروليتاريا العالم، يحذر بصراحة فيقول: (إذا سبب الوضع الدولي الآن حروباً عنصرية.. يمكن للإسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخي مرة أخرى.. وأرجو أن لا يتحقق ذلك) ص ٧٣.

٢ — العاطفة شبه المتوارثة: في اعتذاره عن جرائم (المقلدين) وحكام المستعمرات الغربيين، وفي إغفاله دور الماسونية واليهود (الدومة) في اسقاط الخلافة العثمانية ودعم حركات التغريب.

٣ — فلتات اللسان وصيغ التعبير: يقول مثلاً: (بقي علم «الهلل» يرفرف فوق السواحل الشرقية لبحر الأدرياتيك مقابل «كعب» إيطاليا حتى عام ١٩١٢) ص ١٧. فالمقابلة بين العلم — وهو رمز نبيل — وبين «كعب» إيطاليا الرمز المبتذل يحمل ما يحمل. ومثل ذلك اعتباره دور الإسلام في منافسة الهند والشرق الأقصى مجرد منافسة على (الغنيمة) ص ٦٠.

٤ — النتائج المنحرفة: ولعل هذا الجانب هو أخطر ما في المحاضرتين، لأنه الثمرة المرجوة من جهد جاد. ومنهج غير ساذج. فالمؤلف بعد أن يُسقط من الحساب (المتحمسين) و (المقلدين) — وهو محق — يتشوّف إلى فريق ثالث يتجاوزهما، كما تجاوز المسيح عليه السلام — معاصريه، فلا يجد المؤلف إلا الفرق المتغربة، المنحرفة عن الإسلام، التي أوجدها الاستعمار أو دعمها لضرب الإسلام باسم الإسلام كالبهائية والأحمدية. ص ٦٠ (١).

(١) الأحمدية أو القاديانية أو البابية: حركة منحرفة مشبوهة أسسها الميرزا غلام أحمد القادياني في لاهور من بلاد الهند. وهوتلميذ للرشدي الداهية الباطني المشبوه. بعد استعمار روسيا القيصرية لملكة القوقاز يحضر روسي ليزود الباب غلام أحمد بالأسلحة والخبرة العسكرية، كما يدعي الأرمني الروسي (منوهر خان) الإسلام ليعمل الشاه ويحمي الباب غلام أحمد في قصره من بطش المسلمين، ثم يحاول إدخال الشاه في البابية. دخل يهود إيران في حركة البابية بشكل جماعي =

ولعل المؤلف المطلع أوسع الاطلاع لا تخفى عليه حقيقة هاتين الحركتين. بل سيتضح لنا سبب اختياره لهاتين الحركتين من استنتاجات وإشارات مغرضة سابقة، فثلاً يزعم في السطور الأولى من محاضراته أن الإسلام (هرطقة مسيحية) كالشيوعية! وفي مكان آخر يدلّس على القارئ حين يتحدث عن الهجين المختلط

= ففي أربع مدن وفي مدة قصيرة دخل منهم (٣٨٥) يهودياً. ومن الماسونيين (جولدنبر) المستشرق روج لهذه الحركة، ومن المبشرين في الغرب اهتم بها (اللورد كرز - استلين كاربنتر - براون - فاميري - الكونت جوبينو - البروفسور جيمس دارمستر - نقولاس - الليدي شيل - الدكتور جيل. راجع (حقيقة البابية والبهائية) لمحسن عبد الحميد، منشورات المكتب الإسلامي ص (٩٩-١٠٤) ط ١. من أهداف الحركة تعطيل الجهاد، والتبعية لأعداء الإسلام.

البهائية: حركة كالباية في أصولها وأهدافها لتعطيل الجهاد، أسسها تلميذ الباب غلام أحد، وهو الميرزا حسين علي المازندراني، في إيران. تعاون الانكليز مع الروس واليهود لانتفاذ حياة البهاء الميرزا حسين علي وإخراجه من إيران، ثم من بغداد إلى تركيا وأخيراً إلى عكا، حيث أعدوا المؤامرة الكبرى بإعلان الميرزا نفسه (رباً للجنود ومسيحاً جاء هداية العالم) والدعوة إلى التجمع الصهيوني، واعتبار قيام دولة العصابات (إسرائيل) دليلاً من التوراة على صدق مزاعم البهائية. أما اهتمام الانكليز بالبهائية من تقديم الأوسمة إلى الدعم المادي والأدبي فبحث يطول، وحسبنا الآن مقتطفات من خطب ابن الميرزا، عبد البهاء عباس في نوادي لندن وكنايسها يقول: «إن مغناطيس حبكم هو الذي جذبني إلى هذه المملكة». ويقول: «أصبحت المدنية الغربية متقدمة على الشرقية، وأصبحت الآراء الغربية أقرب إلى الله من آراء الشرقيين». ويقول: «إن لندن ستكون مركزاً لنشر الأمر». وأخيراً احتضنت بريطانيا المؤتمر البهائي عام ١٩٦٣ — راجع المصدر السابق، ص (١١٨-١٩٦).

الذي نتج عن تداخل الحضارة الاغريقية بحضارات السوريين والفرس والمصريين والبابليين والهنود. (ففي هذا الوسط الاجتماعي، وفي جو من الشروط المحيطية الصعبة. ظهر بعض الابداع الجبار الذي حققه الفكر البشري، وكان ذلك في مجموعة من الديانات الرفيعة التي ذاع صيتها في الآفاق، ولا يزال صداها يرن في آذاننا، أما أسماؤها: المسيحية، والمذرائية — عبادة الشمس، والميكائية أو المانوية ثنائية العبادة لله والشيطان، وعبادة الأم وموت وبعث ابنها — سيبل ايزيس وآتيس اوزيريس، وعبادة الاجرام السماوية، والمدرسة البوذية — ماهيانا — والتي تحولت من فلسفة إلى دين بتأثيرات سورية وفارسية، وانتشرت في الشرق الأقصى، مع الأفكار الهندية التي جعلت في قالب في جديد مستوحى من الإغريق) ص ٥٩ — ٦٠.

ما الجامع بين الدين السماوي الذي حمله المسيح عليه السلام وبين هذه الوثنيات. ثم ما الجامع بين الإسلام والمهرطقات المسيحية؟! ليس الإسلام ولا ما حمله المسيح عليه السلام بهجينين لحضارات متصارعة بل هما تجاوز لعهود الظلام على هدى من الله تعالى. وما خلط المؤلف بين هذه الأمور إلا احتيال لايهام القارئ بوحدة الأديان السماوية وغير السماوية، ومن ثم صحة الدعوة إلى توحيد الأديان السماوية. إن وحدة الأديان السماوية شيء، ودعوة البابية والبهاية إلى توحيد الأديان لتعطيل الجهاد عند المسلمين شيء آخر، فهاتان الحركتان تنطلقان من أن اليهود والمسيحيين والمسلمين يؤمنون برسالة (موسى) عليه السلام، وهذا

القاسم المشترك حقيق بجمعهم على صعيد واحد! طبعاً هو صعيد هيكل سليمان؟! (١) ولهذا نرى المؤلف يتساءل عن نتيجة (الخليط المتنافر الذي نتج عن غزو الغرب للعالم)؟ أهو التطور السلمي البطيء فالإبداع؟ أم الانفجار المدمر (الذي سيكون للإسلام — فيه — دور العنصر الفاعل في ردة فعل عنيفة تقوم بها البروليتاريا العالمية للشعوب المسحوقة. ضد أسياها... الغربيين) ص ٦٨. ولما خشي من يقظة الخلافة وانبعاث التاريخ البطولي للإسلام كما حدث أيام الصدر الأول وأيام نور الدين وصلاح الدين، فلا بد من (تنويم) الخلافة والجهاد، والترويج للحركات المتغربة، خصوصاً وأن الدعوة القومية أخذت مكان الوحدة الإسلامية. ص ٧٢.

هذا بالنسبة إلى المنهج أو المضمون. وهو المهم، أما بالنسبة للأسلوب التعبيري، فن الواضح أن المؤلف يتمتع بملكة أدبية حسنة، ربما تمتع القارئ أو توضح بعض الأمثلة، لكنها ليست من مستلزمات العمل العلمي، وهي تذكرنا بـ (رؤيا) توينبي الشاب التي فتحت له الطريق إلى نظريته المعروفة في التاريخ.

وعلى كل حال يمكن أن نتبين هذه الملكة الأدبية في المظاهر التالية:

١ — الثقافة الأدبية: مثل استمداده من نصوص ما يسمى بـ

(١) انظر (حقيقة البابية والبهائية) — لمحسن عبد الحميد — ص ١٩١.

(الكتاب المقدس) ص ٥٢، والثقافة الإسلامية ص ٢٨
وص ٧٣، والنصوص التاريخية أو السياسية ص (٢٣ و ٤٠ و ٥٣
و ٥٨).

٢ — التعبيرات التصويرية: أي استخدام التشبيهات
والاستعارات: مثل تصوير التغرب المحدود (بالجرعة الصغيرة)،
وتأثيرات الغرب (باهدايا) أو (النعمة) أو (العدوى) أو
(الجرثومة). ومثل قوله: (يواجه الإسلام الغرب — وظهره
للجدار)، وقوله: (بزغ فجر العصر البتروني) (والحرارات التي
تستطيع أن تزحف كالأربعينيات على التلال الرملية) و (العري
الاجتماعي) و (العري الروحي) و (يلجأ المتحمس إلى الماضي
كالنعامة) و (جعل بلديهما حقل تجارب) و (الحاجز اللوني)
و (أسر الإسلام المغلوب غالبية) ^(١). هذا كله في كتيب لا
تتجاوز صفحاته ثلاثاً وسبعين من القطع المتوسط!

٣ — صور من البيئة البحرية البريطانية: هناك نوع خاص من
تعبيراته التصويرية غير ما ذكرنا، وهو ما يرجع إلى بيئة المؤلف
البحرية. فثلاً يكرر عبارة (ألقى شبابه) وما يشبهها أربع مرات
على الأقل ص (٣٥ و ٤٧ و ٦٧ و ٦٨)، ومثل ذلك قوله: (حولوا

(١) لم نشأ أن نستقصي تعبيراته التصويرية، فهناك صور أخرى مثل: (ألثة ليدانات
سامية)، ص ٦٠، و (حصاة الأسد) ص ٦٣، (بعم) ص ٦٨، و (نومة أهل
الكهف)، ص ٧٣، (الطائرات التي تحوم كالقنبان) ص ٣٩، و (الطبيعة
تكره الفراغ) ص ٦٦. وفقرات البحث التالية مجموعة صور تعبيرية.

باختيارهم دفعة سفينتهم وبدؤوا الاجار باتجاه ربح المقلدين). أما قوله: (تغيير جياذ العربى وهى فى وسط تيار النهر) فصوره لىست بغربىة لىدى البرىطانىين.

٤ — الروح الساخرة: للأسف تناولت سخرىته المسلمىن أكثر من غىرهم. الصور السابقة تشير إلى ذلك. نضىف إليها قوله: (إن الغرب نلج فى أواخر القرن السادس عشر فى عقد الأنشطة حول عنق الإسلام) ص ١٩. و(إزالة الدين الإسلامى) ص ٢٥ و(كنست الشرىعة الإسلامىة) ص ٥٠ و(ىعذبونهم بالعقارب) ص ٥٦ و(الوحدة الإسلامىة ما هى إلا عارض للغرىزة التى تدفع قطىعاً من الثىران)! ص ٦٩ و ص ٧٠.

أما بالنسبة إلى أسلوب المترجم فهو جىد بشكل عام. لكنى لا ىخلو من بعض الهنات: مثل تقدىم التوكىد على المؤكّد (نفس الشىء) ص ٣٣ و ٣٤ و ٧١. والصواب (الشىء نفسه). و(المضرة) الصواب (الضارة) و(المفروضة من قبل سلطة) تعبرى أجنبى صوابه (فرضتها سلطة) و(الفشل) صوابه (الاخفاق).

تعتبر المقدمة التى كتبها الناشر عملاً مشكوراً لولا قوله: (فات توىنى فى استقرائه أمر جلىل بالغ الأهىة. وهو أن بىن معسكر الشرقىين المقاومىن (المثحمسىن) — كما ىسمىهم — و بىن معسكر الشرقىين (المقلدىن) معالم حركة ثالثة...) ص ١١. فالحقىقة أن هذا الفرىق لم ىفت أرنولد توىنى، بل ساق حدىثه إلىه ووقف

عنده وسماء بالاسم، لكنه حصره، أو لم يجده إلا في حركتي
(الأحمدية والبهائية) (١) وقد نبهنا نحن إلى خطأ استنتاجه هذا،
وصدوره عن روح التحيز التي لم يستطع التجرد عنها.

(١) انظر ص ٦٠.

الفهرس

الصفحة

| | |
|--|----|
| الغزو الحضاري محاسنه ومساوئه | ٥ |
| إيثار الحق على الواجب ظاهرة غير حضارية | ١٩ |
| التبديل الاجتماعي | ٢٤ |
| أبعاد التبديل الاجتماعي | ٣٢ |
| الأدب الحضاري | ٣٧ |
| صورة أدبية من صور المعركة الحضارية (١) | ٤٢ |
| صورة أدبية من صور المعركة الحضارية (٢) | ٥٨ |
| سلسلة ولسون الحضارية | ٧٤ |
| باب التعريف والنقد | ٨٣ |
| الفهرس | ٩٥ |

